المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر

(دراسة نقدية)

د. عادل جابر صالح محمد

مقدمة

عاش ضياء الدين بن الاثير مايقرب من ثمانين عاماً ، وهو عمر طويل ثريّ بالتجارب في السياسة والإدارة والإنشاء والتأليف والتدريس ، وكان كتابه «المثل السائر» أهم ماألفه ودرّسه واقترن باسمه وأدلّ به على علماء عصره ، مما جعله يحدث عاصفة بين المعنيين بشؤون البلاغة والنقد والتأليف من قدماء ومحدثين . وقد جاءت مادّة الكتاب في مقدمة ومقالتين ، ولعلّ اهم ماشتملت عليه المقدمة موضوع علم البيان وأدواته وأركان الكتابة وتمهيد الطريق أمام من يريد أن يتعلمها ، أما المقالة الاولى (اللفظية) فتحدثت عن خصائص الألفاظ مفردة ومركّبة ، وجاءت المقالة الثانية (المعنوية) في المعاني مجملة ومفصلّة حيث تكون مبتدعة ومطروقة .

وغاية «المثل السائر» تعليم الكتابة والشعر ، وقد يكون ابن الأثير الأول في رسم هذا الهدف من التأليف في علم البيان ، لان الذين ألفوا قبله كالآمدي وابن سنان وعبدالقاهر الجرجاني والعسكري لم يكن غرضهم تعليم الكتابة او الشعر وإنما كان غرضهم غاية العلم بالبلاغة والإعجاز وتمييز الجيد من الرديء . وقد اشترط ابن الأثير على المتعلم أو المتأدب شرطين وجدهما في نفسه : الذوق السليم أو الطبع (وما يسمى اليوم بالاستعداد الفطري في علم النفس او الموهبة في النقد الادبي) والدّربة، ويتصل بهما شرط ضمني هو المادة التي يتمّ بها هذا التعليم من الصناعة اللفظية والمعنوية وكيفية تقديم هذه المادة .

وقد عرض ابن الأثير مادة كتابة بلغة فصيحة مختارة المفردات متينة التراكيب متماسكة الأفكار متصلة الفقرات خالية من السجع ، ويتضاعف قدر هذه الفضيلة

إذا علمنا أنه عاش في عصر السّجع ولم يسجع ، بل أبقى للغة رونقها وطراوتها . ومن محاسنه أيضاً أنّه لم يكن يكثر من النقل ولا يحيل كتابه مجموعة نُقول ، وكان يناقش سابقيه مبيناً خطأهم وقصورهم ، مما فسح مجالاً واسعاً لظهور شخصيته .

وقد اختص ابن الاثير من بين المؤلفين القدامى والمحدثين بالفخر في أثناء كتابه ، فخراً مباشراً وغير مباشر، فكثيراً ماصرّح بذاته وتميزه وتفرّده ، تصريحاً ادى به الى الغرور والتعالي والتعاظم والغضّ من الآخرين والإدلال عليهم ، ولذلك استثار عليه الباحثين حتى خرجوا به الى أبعد حدود العيب . ولاشك ان ذكاء ابن الاثير وفطنته وشعوره بالغبن الاجتماعي وحسن ظنه بالناس وما وجده من نقص وخلط واضطراب في الدراسات البيانية ، كل ذلك زاد من ثقته بنفسه ، ودفعته هذه الثقة الى خارج حدودها فاستحالت ادّعاء وغروراً ، علماً أنه لم يفخر بفراغ ولم يتبجح بباطل ، وإنما كان الأولى به أن يحكم إرادته في لسانه وأن يدع عمله يتكلّم .

لكل ماتقدم مما يتصل بشخصية ابن الاثير وكتابه القيم اقدمت على وضع هذا البحث وجعلته موزّعاً على اربعة فصول وخاتمة ، ترجمت في أولها لابن الاثير ، وتحدّثت عن شيوخه وثقافته وصفاته وأخلاقه ، وذكرت تصانيفه و آثاره . وفي الفصل الثاني عرضت لمادة كتاب «المثل السائر» فبينت أنها مبنية على مقدمة في أركان الكتابة ومقوماتها ، وعلى مقالتين إحداهما في الصناعة اللفظية والاخرى في الصناعة المعنوية . أما الفصل الثالث الذي دار حول ابن الاثير الناقد فانشأته على ستة اقسام : الاول في مواقف ابن الاثير من علماء البلاغة قبله ، والثاني في مواقفه من الكتّاب ، والثالث في مواقفه من علماء العربية ، والرابع في تأثره بالنقاد السابقين ، والخامس في حديثه عن الموهبة ، والسادس في حكمه على الأدب . وخصصت الفصل الرابع لابن الاثير الكاتب . وجاءت الخاتمة ملخصة لأبرز ماانتهى اليه هذا البحث من نتائج .

الفصل الأول

ضياء الدين بن الأثير

٥٥٨ - ٦٣٧ هـ

ترجمته

هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني المعروف بابن الاثير الجزري ، الملقب ضياء الدين(١) .

ولد ضياء الدين في جزيرة ابن عمر(٢) على الشاطئ الغربي لدجلة من أعمال الموصل شمال العراق وذلك سنة ٥٥٨هـ(٣) ، وفيها تربى ونشأ في بيت جاه وثراء ؛ اذ كان والده عامل حاكم الموصل على الجزيرة ، ويعمل بالتجارة ايضاً(٤) ، الأمر الذي يسّر له «الاهتمام بتعليم اولاده اهتماماً كبيراً ظهر اثره في نبوغ الاخوة الثلاثة كلٌ في ميدانه»(٥) .

وفي سنة ٥٧٩ هـ تنتقل أسرته الى الموصل حيث كان والده يعمل في خدمة الاتابكة . وفيها اشتغل ضياء الدين بتحصيل العلوم ... ولما كملت له الأدوات كما يقول ابن خلكان خرج من الموصل متوجها الى الشام حيث اتصل بخدمة الملك الناصر صلاح الدين سنة ٥٨٧ هـ بفضل القاضي الفاضل ، ولكن مالبث ان طلبه ابنه الملك الافضل فخيره صلاح الدين بين الاقامة في خدمته او الانتقال الى ولده فآثر خدمة الافضل ومضى اليه فحسنت حاله عنده وجعله وزيرا . ولما توفي صلاح الدين واستقلّ الأفضل بمملكة دمشق استقل ضياء الدين بالوزارة وحسّن للافضل ابعاد امراء ابيه(٦) ، وقال : «هؤلاء خواص السلطان وينظرون اليك بتلك العين ، ويعتقدون ان حقهم واجب وجوب الدين ، وهم - بحكم المعرفة لك من الصغر- يتبسطون ويشتطون ولا يقنعون ، وأعمال دمشق لاتسعهم وجميعها لاتقنعهم ، والأعمال المصرية لهم أفسح وأوسع ، وأما الغرباء فإنهم يقنعون بأي شيء اعطيتهم، ويعترفون بحقك ويعظمونك»(٧) .

وقد لاقت هذه الكلمات لدى الافضل آذاناً صاغية فأعرض عن اصحاب أبيه

وأكابر امرائه ، ففارقه جماعة منهم : القاضي الفاضل ، والقاضي بهاء الدين بن شداد ، والعماد الكاتب ، وتوجهوا الى اخيه الملك العزيز صاحب مصر فاحترمهم وأحسن اليهم وقرّبهم ، واجتمعت كلمتهم على نصرته ، وتقرير قواعد ملكه .

ويشير عمادالدين الكاتب الى هذه الحادثة فيقول : «وكنت أنا ممن سيمَ البُعد ، وسُئم منه الود ، وتفرد الوزير بوزره ، ومدّ الجزريّ في جزره .. ومكث الملك الافضل أشهرا الغنى عني مظهراً ، وبظاهر دعاوى اولئك الجماعة مستظهرا .. ولم يخف عن الملك الأفضل ماهو الافضل .. فاستدعاني .. ولم يزل بخطابه يُبجلني ، وبعتابه يخجلني ، وبترغيبه يقرّبني ، وبتقريبه يرغّبني ، حتى عدت الى قوله»(٨) .

ولما أُخذت دمشق من الافضل خرج الى صرخد ، وخشي ضياء الدين أن يخرج معه لأنه كان قد اساء السيرة وهدده الناس بالقتل وأخرجه الحاجب مستخفياً في صندوق مقفل ، وكان الناس ضاقوا ذرعا به حتى هجاه أحدهم بقوله :

متى أرى وزيركم ومالــه مـــن وزَرِ
يقلعـــه الـله فذا أوان قلع الجزَرِ(٩)

ثم التحق بالملك غازي صاحب حلب ، لكن الإقامة لم تطب له هناك فخرج مغاضبا الى الموصل لكن حاله لم تستقم فتنقل مدة بين إربل وسنجار حتى عاد الى الموصل واستقر بها والتحق بخدمة صاحبها ناصر الدين محمود سنة ٦١٨ هـ فكتب له الإنشاء . وظل ضياء الدين في الموصل حتى سنة ٦٣٧هـ ، وكانت هذه الفترة من أخصب فترات حياته ، فقد كانت فترة استقرار وإنتاج ، فيها ألف اكثر كتبه ، وأهمها : المثل السائر والاستدراك والوشي المرقوم ، كما كتب كذلك أكثر رسائله(١٠).

وظل يدرّس الناس اللغة والأدب ويعلم تلاميذه المثل السائر ، ومن تلاميذه الذين سمعوا عليه ابن الساعي -٦٧٤هـ صاحب كتاب المختصر في التاريخ(١١) . وسمع به ابن خلكان وعرف فضله وتمنّى ان يلقاه ليأخذ عنه ، يقول في كتابه : «ولقد ترددت الى الموصل من إربل اكثر من عشر مرات وهو مقيم بها ، وكنت أودّ الاجتماع به لآخذ عنه شيئاً ولما كان بينه وبين الوالد من المودة الأكيدة فلم يتفق ذلك»(١٢) .

وكانت وفاة ابن الاثير سنة ٦٣٧هـ في بغداد ، وكان حاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ بعثه في سفارة الى الخليفة ، وصلي عليه من الغد بجامع القصر ودفن بمقابر قريش في الجانب الغربي بمشهد موسى بن جعفر(١٣) .

ثقافته وشيوخه .

عاصر ضياء الدين اثناء تلقيه العلم بالموصل جماعة من الأدباء الكبار وعلماء اللغة ، مثل : ابن الدهان- ٦١٦هـ ، وعلي بن خليفة النحوي - ٦٣٥هـ ، الشاعر محمد بن دانيال - ٦٠٨هـ ، وشميم الحلّي - ٦٠١هـ (١٤) .

ويمكن لدارس مصنّف واحد من مصنفات ابن الاثير وهو «المثل السائر» أن يتبين ان الرجل كان تزوّد بخير ماجاد به عصره من ألوان الثقافة ، فهو حافظ للقرآن الكريم ، واهتم بقراءة «جواهر القرآن» للغزالي ، وتفسير «الكشاف» للزمخشري ، وقرأ في الفقه واصول الدين بعض كتب أبي حامد مثل «إحياء علوم الدين» و «الأربعين» . وحفظ كذلك كثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة . وأخذ طرفاً صالحاً من النحو واللغة ، ففي اللغة قرأ لأبي علي الفارسي ، وللمبرد كتاب «الروضة» ، ولابن جنّي «الخصائص» وللميداني «الأمثال» و «اصلاح ما تغلط فيه العامة» للجواليقي . وفي الأدب اهتم بقراءة كتاب «الأغاني» لأبي فرج الاصفهاني ، ومقامات الحريري . وفي الشعر حفظ دواوين أبي تمام والمتنبي والبحتري ؛ لان هؤلاء الثلاثة المتأخرين كانوا ختام الشعر ، ولأنه لم يجد من دواوين الشعراء قديمهم وحديثهم أجمع من ديوان ابي تمام والمتنبي للمعاني الدقيقة ، اما ابو عبادة البحتري فإنه احسن في سبك اللفظ على المعنى ، وأراد ان يشعر فغنّى ، ولقد حاز طرفيّ الرقة والجزالة . ودرس كذلك دواوين كثير من الشعراء القدماء والمحدثين ، مثل : أبي نواس ، والفرزدق ، وامرئ القيس ، والشريف الرضي ، وحماسة أبي تمام ، ولزوميات المعري ونقائض جرير والفرزدق ، وآخرين(١٥) .

اما علم البيان فقد خصص له أكثر وقته ، ووقف عليه معظم جهوده ، وقرأ فيه الكتب النظرية ؛ فدرس ما ألف في البلاغة والنقد وعرف ما انتهى اليه العلماء فيها ،

وأهم ماقرأه منها : كتاب «الصناعتين» لأبي هلال العسكري ، و«التذكرة» لابن حمدون البغدادي ، وكتاب أبي العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي ، وقرأ كذلك لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني ، وقدامة بن جعفر ، وعبدالله بن المعتز ، والقاضي الجرجاني ، وكان معجباً بكتاب «الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحتري» للآمدي الحسن بن بشر وكتاب «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجي ، وإن كان الأول «اجمع اصولاً واجدى محصولا»(١٦) .

ويظهر لدارس المثل السائر كذلك أن ضياء الدين كان يعرف لغات غير العربية ، مما هيأ له ان يحكم على «الالتفات» بأنه خاص باللغة العربية دون غيرها من اللغات(١٧) . بل نقع في اثناء قراءتنا لمادة الكتاب على عبارة صريحة تدل على انه كان يعرف اللغة السريانية ؛ فكثيرا ماكان يجد الكناية والتعريض فيها فان الإنجيل الذي في ايدي النصارى قد أتى منهما بالكثير(١٨) . وهنالك في مادة الكتاب مايشير الى انه كان يعرف اليونانية ؛ فقد وجد في أول كتاب الفصول لأبقراط : العمر قصير ، والصناعة طويلة ، وهذا الكتاب على لغة اليونان(١٩) ، وكذلك كان يعرف الفارسية فقد «وجد فيها من الكناية ...» (٢٠) .

ويشير أحمد بدوي الى ان ضياء الدين كان يعرف التركية ويستند في حكمه هذا الى حديث ضياء الدين عنها في كتابه «المثل السائر ص ٢٥١- ٢٥٥ لكني لم اقع على هذا (٢١) ويضيف ان ضياء الدين كان أخذ كذلك بحظ من الحساب والجبر والمقابلة والهندسة . ويرى ان موقفه من الفلسفة كان موقف المبغض المزدري ، يرى في رجالها من امثال ابن سينا والفارابي رجالا مغرورين اضلّهم ارسطو وأفلاطون»(٢٢).

صفاته وأخلاقه

يشير المؤرخون الى ان ضياء الدين كان رجلا مغرورا فيه قدر كبير من الإعجاب بنفسه والافتتان بها . والواقع ان هذا كلام لايعدو الحق ، لأن ماقالوا أبين من أن يدل عليه اذ ظهر في كتابه ظهوراً يلفت النظر ، ومع ذلك فلا بأس من ايراد بعض

الامثلة : فهو مثلاً يجعل كتابه معرضاً لنماذج انشائية لنفسه ويبين اعجابه بها وينوّه بقدرها ويبين مااستطاع ان يصل اليه فيها من معان مبتكرة وأفكار جديدة ، وقلما يأتي بنماذج لغيره وإن اتى فليوازن بينها وبين كلامه ويقنعك بجودة ماخطه قلمه . وفي نظريات البلاغة كثيرا ماتراه يعدّها من مبتكراته ، أو يأخذ بيدك لتلمس مازاده هو على آراء من سبقه .

وإنا نقرّ لابن الاثير انه كان من مجتهدي هذا الفن ، وأنّ أكثر كتابه كان ناشئا عن تجارب ذاتية ومن تقليبه النظر في ألوان الكلام ليستخلص منه وجوها حسنة(٢٣).

وبلغت ثقة ابن الأثير بنفسه واعجابه بها درجة الحقد على الآخرين والتعريض بهم ، حتى سوّلت له نفسه التعريض بذلك الرجل الذي كان له عليه فضل اتصاله بالملك الناصر صلاح الدين وأعني به القاضي الفاضل ؛ قال ابن الاثير وهو يتحدث عن التشبيه : «ومن شروط التشبيه ان يشبّه الشيء بما هو أكبر منه وأعظم . ومن هنا غلط بعض الكتاب من اهل مصر (يعني القاضي الفاضل) في ذكر حصن من حصون الجبال ، مشبها له فقال : هامة عليها من الغمامة عمامة ، وأنملة خضبها الأصيل فكان الهلال منها قلامة» . وهذا الكاتب حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء، فإنه اخطأ في قوله (أنملة) . وأي مقدار للأنملة بالنّسبة الى تشبيه حصن على رأس جبل...(٢٤)» .

تصانيفه وآثاره

لضياء الدين مؤلفات وآثار أدبية تدلّ على غزارة علمه ، وسبقه مَن عَرف من علماء البيان ونقاد العربية ، وهي :

١- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ويعتبر أهم مصنفاته ، وهو في مجلدين يشتملان على مقدمة في أصول علم البيان ، ومقالتين الأولى في الصناعة اللفظية ، والثانية في الصناعة المعنوية . ولم يترك فيه صاحبه شيئا يتعلق بفن الكتابة أو النظم إلاّ ذكره . وكان كما قال ابن خلكان : «جمع فيه فأوعى(٢٥)» .

وكان لهذا الكتاب وقع كبير في الدوائر البلاغية ، حيث ان الوزير «لما فرغ من تصنيفه كتبه عنه الناس فوصلت الى بغداد منه نسخة ، فانتدب له الفقيه الأديب عبدالحميد بن أبي الحديد المدائني ، وتصدّى لمؤاخذته والردّ عليه وعنته ، وجمع هذه المؤاخذات في كتاب سماه «الفلك الدائر على المثل السائر(٢٦)» . وانتصر أبو القاسم السنجاري ٦٥٠هـ للمثل السائر فالف كتاباً سمّاه «نشر المثل السائر وطيّ الفلك الدائر(٢٧)» بل تستطيع كما يقول صاحب كتاب «الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية» أن ترجع الى كشف الظنون ، لترى ما اثاره هذا الكتاب من دراسات(٢٨) .

ونستطيع ان ندرك قيمة هذا الكتاب اذا عرفنا رأي أهل البيان فيه ، حيث يقولون «إنّ المثل السائر للنظم والنثر بمنزلة اصول الفقه لاستنباطه ادلة الأحكام ، اذ أتى فيه بما لم يسبقه أحد اليه(٢٩)» .

٢- الوشي المرقوم في حلّ المنظوم : وهو ، كما يقول ابن خلكان ، مع وجازته في غاية الحسن والإفادة(٣٠) . ويرى الدكتور أحمد بدوي أن «الوشي المرقوم» منهج تطبيقي لفكرته التي يدعو اليها ؛ وذلك انه يرى الكاتب محتاجا لحفظ القرآن الكريم ، والأخبار النبوية ، والأشعار الكثيرة بقدر المستطاع(٣١) . ويقول الدكتور عبداللطيف حمزة : إن ضياء الدين رتبه على مقدمة ، وثلاثة فصول : الأول في حل الشعر ، والثاني في حلّ آيات القرآن ، والثالث في حلّ الأحاديث النبوية(٣٢).

٣- المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء - وهو كما يقول ابن خلكان : «نهاية في بابه(٣٣)».

٤- مجموع اختار فيه شعر أبي تمام والبحتري وديك الجن والمتنبي - ويقول ابن خلكان : هو في مجلد واحد كبير ، وحفظه مفيد(٣٤) .

٥- ديوان ترسّل في عدة مجلدات ، والمختار منه مجلد واحد(٣٥) .

٦- كتاب السرقات الشعرية : وقد حدّثنا عنه في المثل السائر ، اذ يقول : «اعلم ان علماء البيان قد تكلموا في السرقات الشعرية فأكثروا ، وكنت ألفت فيه كتابا ،

وقسمته ثلاثة اقسام : نَسْخا ، وسَلْخا ، ومَسْخا ، أما النسخ فهو أخذ اللفظ والمعنى برمته ... وأما السلخ فهو أخذ بعض المعنى ... وأما المسخ فهو إحالة المعنى الى مادونه . وههنا قسمان أخران أخْلتُ بذكرهما في الكتاب الذي ألفته ؛ فأحدهما : أخذ المعنى مع الزيادة عليه ، والآخر عكس المعنى الى ضده(٣٦)» .

٧- كنز البلاغة - وقد ذكره الدكتور بدوي(٣٧) ، ولم أعثر على ذكر له في المصادر القديمة التي وقعت بين يدي مثل : وفيات الأعيان ، ومفرج الكروب ، والتاريخ الباهر لشقيق المترجم له .

٨- المرصع في الأدبيات - وقد طبع في القسطنطينية سنة ١٣٠٤هـ كما يقول الدكتور بدوي(٣٨) .

٩- مؤنس الوحدة - جمع فيه أشعارا وأخبارا في المدائح والأوصاف والتشبيهات(٣٩) .

١٠- المفتاح المنشا لحديقة الإنشا - بدأه مبينا فضل صناعة الإنشاء وأنها أشرف صناعات الممالك ، وقد رتب الكتاب على بابين ؛ أولهما : في مراتب الكتب والمخاطبات . والثاني : في الأدعية والانتهاءات ؛ فذكر ماتبدأ به الرسائل ، والألقاب التي يخاطب بها المرسل اليهم والدعاء لهم ، وذكر فصلا في الأدعية لأرباب الملل غير الاسلامية ، وأورد الصيغ التي يقدمها الكاتب بين يدي مراده ، كما شرح فيه كثيرا من الوان المحسنات البديعية(٤٠) .

١١- الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور(٤١) .

١٢- البرهان في علم البيان(٤٢) .

١٣- رسالة الأزهار(٤٣) .

الفصل الثاني

عرض الكتاب

وأشهر مؤلفات ابن الاثير وأسيرها بين الناس ذكرا هو مصنفه البلاغي النقدي الذي تناول فيه موضوع البيان بالتفصيل ، ماتصل منه بالشعر او بالنثر . وقد وضع بين صفحاته القيمة مجموعة كبيرة من النصائح والإرشادات لكل من يهتم بفن صناعة الكلام من كتاب وشعراء ؛ فحدد لهم معالم الطريق .

مقدمة الكتاب

وتناول في القسم الأول الذي هو المقدمة اصول صناعة تأليف الكلام من شعر ونثر ، ويلاحظ انه اهتم بالنثر اكثر من اهتمامه بالشعر ؛ ولذلك هو يبدأ حديثه بتوجيه نصائحه الى الكتاب لكي يجوّدوا صناعتهم ؛ وأول ماينصح به الكاتب هو ضرورة الإلمام بأدوات علم البيان ، ولكن بعد أن يكون «ركّب الله تعالى فيه طبعا قابلا لهذا الفن(٤٤)» ، أما الأدوات فهي :

معرفة علم العربية من النحو والتصريف؛ والذي هو «ضابط لمعاني الكلام ، وحافظ لها من الاختلاف(٤٥)» . ومعرفة اللغة مما تداول استعماله ؛ وهو «المتدارك المألوف في فصيح الكلام ، غير الوحشي الغريب ولا المستكره المعيب(٤٦)» .

ومعرفة امثال العرب وأيامهم ، ومعرفة الوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوام ؛ ويذكر هنا انه كان جرّد من كتاب الامثال للميداني «أوراقاً خفيفة تشتمل على الحَسن من الأمثال الذي يدخل في باب الاستعمال(٤٧)» ، وينبّه على ان حاجة الكاتب الى هذه الامثال شديدة ؛ وذلك لان العرب لم تضع الأمثال الا لأسباب ، «فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التي يُعرف بها الشيء ، هذا اضافة الى انه ليس من كلامهم أوجز منها(٤٨)» . وأما ايام العرب فمتنوعة وكثيرة ، ولا يخلو الكاتب من القيام «لوصف يوم يمرّ به شبيها بيوم من تلك الأيام ، فإذا جاء ببعض تلك الأيام المناسبة لمراده وقاس عليه يومه ، فإنه يكون في غاية الحسن

والرّونق(٤٩)» . وأما الوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوام فإنها كالأمثال في الاستشهاد بها .

ومعرفة مؤلفات من تقدمه في المنظوم والمنثور ، والاطلاع عليها ؛ لأن ذلك «يشحذ القريحة ويذّكي الفطنة(٥٠)» .

«ومعرفة الأحكام السلطانية من الإمامة والإمارة والقضاء والحسبة وغير ذلك» ، ومعرفتها ضرورية لما يحتاج اليه الكاتب في «تقليدات الملوك والأمراء والقضاة والمحتسبين ومن يجري مجراهم(٥١)» .

ويطلب اليه كذلك حفظ القرآن الكريم ، وذلك يعود عليه بفوائد كثيرة ، منها : أنه «يضمّن كلامه بالآيات في أماكنها اللائقة بها ، ولا شبهة فيما يصير الكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرّونق . ومنها أنه إذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة في تأليف القرآن اتخذه بحرا يستخرج منه الدّرر والجواهر ويودعها مطاوي كلامه ، وكفى بالقرآن وحده آلة وأداة في استعمال أفانين الكلام(٥٢)» .

وحفظ الأخبار النبوية ، والسلوك بها مسلك القرآن في الاستعمال . ومعرفة علم العروض والقوافي ، الذي به يقام ميزان الشعر ، وهذا يختص بالناظم دون الناثر .

ثم ينبه الى انه متى احاط صاحب هذه الصناعة بكل هذه الأدوات ، وكان ذا طبع أيّ موهبة ، «فعليه بالنظر في كتابنا هذا والتصفح لما أودعناه من حقائق علم البيان(٥٣)» .

كذلك يلاحظ ان ذكره لأدوات علم البيان الآنفة لم يكن من قبيل الحصر وإنما هي الحدّ الأدنى والأساسي الذي ينبغي أن يلمّ به صاحب صناعة الأدب ؛ ذلك لأنه ينبه بعد ذلك على ضرورة الإلمام بكل فنّ حتى تستقيم صناعته ، يقول : «وبالجملة فإن صاحب هذه الصناعة يحتاج الى التشبث بكل فن من الفنون حتى انه ليحتاج الى ماتقوله النادبة بين النساء ، والماشطة عند جلوة العروس ، والى مايقوله المنادي في السوق على السلعة ، فما ظنك بما فوق هذا ، والسبب في ذلك أنه مؤهل لأن يهيم في كل واد فيحتاج ان يتعلق بكل فن(٥٤)» .

ويتناول في المقدمة الحديث عما يسميه «جوامع الكلم» وهي تلك الالفاظ التي

«تتضمن من المعنى ما لاتتضمن أخواتها مما يجوز ان يستعمل في مكانها(٥٥)» ، وكان ابن الاثير كلما وقع على مثلها اثناء تصفحه الكتب في المنظوم والمنثور وجد لها «نشوة كنشوة الخمر وطربا كطرب الألحان(٥٦)» . ويتضمن حديثه هنا طلبا الى الكتاب بتتبع أقوال الناس في محاوراتهم ، فإن الكاتب منهم «لايعدم مما يسمعه منهم حكما كثيرة(٥٧)» هي ضالة المؤمن وهو أحقّ بها أنّى وجدها كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويذكر أن من موضوعات علم البيان المهمة ، موضوع الحقيقة والمجاز ؛ «بل هو علم البيان بأجمعه»(٥٨) ويفرد للحديث عنه فصلا طويلا لأهميته الكبيرة .

ثم يتكلم عن الفصاحة والبلاغة ؛ ويفرق بينهما : فالفصيح من الألفاظ هو الحسن؛ «لأن الألفاظ داخلة في حيز الأصوات ؛ فالذي يستلذّه السمع منها ويميل اليه هو الحسن ، والذي يكره وينفر عنه هو القبيح(٥٩)» . أما البلاغة فهي شاملة للألفاظ والمعاني ؛ ولذلك «كل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغ(٦٠)» .

ويعقد المؤلف فصلا للحديث عن شرائط الكتابة وأركانها ، التي لابدّ من ايداعها في كل كتاب بلاغي ، وهي : ان يكون مطلع الكتاب عليه جدّة ورشاقة ، وان يكون الدعاء المودع في صدر الكتاب مشتقا من المعنى الذي بني عليه الكتاب ، وأن يكون خروج الكتاب من معنى الى آخر برابطة لتكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض ، وأن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلوقة بكثرة الاستعمال ، وأن لايخلو الكتاب من معنى من معاني القرآن والاخبار النبوية فإنها معدن الفصاحة والبلاغة(٦١)» .

ويتوج نصائحه الى الكتاب في مقدمة كتابه بوضع فصل يحاول فيه ان يعبّد الطريق أمام الكتاب ويسميه «في الطريق الى تعلم الكتابة» وهو غاية في الأهمية ، لأنه كما يقول : «هو كنز الكتابة ومنبعها(٦٢)» يرى فيه أن الكاتب اذا أحبّ الترقي الى درجة الاجتهاد في الكتابة فعليه بمعرفة كل ماذكره في صدر الكتاب ، الاّ ان حاجته تبقى ماسّة الى ثلاثة اشياء هي «رأس الكتابة وعمودها وذروة سنامها وهي : حفظ القرآن الكريم ، والإكثار من حفظ الاخبار النبوية والأشعار(٦٣)».

المقالة اللفظية

اما القسم الثاني من الكتاب فهو المقالة اللفظية ، ويتحدّث فيها المؤلف عن احتياجات صاحب هذه الصناعة في تاليفه فيردها الى ثلاثة اشياء ، هي : اختيار الالفاظ المفردة ، ونظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها؛ لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا ، والغرض المقصود من ذلك الكلام(٦٤) .

ثم يشرع في توضيح هذه الاحتياجات فيتكلم عن الطريقة التي يتم بها اختيار الكلمات؛ فما قبله الذوق ، وحسن وقعه على السمع ، ولم يكن وحشيا غليظا مبتذلا بل مألوفا متداولا مفهوما خفيفا قريب التناول .. يحسُن استعماله . وهذا اللفظ ينبغي ان يستخدم في الموضع اللائق به : فالجزل (اي المتين على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع) له وجه في الأستعمال ، والرقيق (أي اللطيف الناعم) له وجه أيضا . ومن أجل ذلك يرى ابن الاثير ان للكلمات «وقعا على السمع يجري مجرى الاشخاص من البصر : فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج»(٦٥) .

ويبين خصائص اللفظ المركب ، وأكثرها قريب من خصائص الكلمة المفردة ، وفصاحته متصلة بحسن تاليفه ؛ وذلك أن لايكون غليظا على اللسان ، ثقيلاً على السمع لتعاقب صيغ متشابهة كالأفعال مثلا ، وان يكون في تاليفه قريبا من المالوف غير شاذ كالمتعاظل في الألفاظ سواء أكانت حروفا أم ضمائر وما اليها .

وعنده ان صناعة تاليف الكلمات ترتد الى انواع ثمانية :

الأول : السجع ، ويسميه المسجع ويعرّفه بقوله : «تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد(٦٦)» . وأحسن السجع عنده ماكانت ألفاظه حلوة حادة طنّانة رنّانة ، وتابعة للمعنى ، ويجري عفو الخاطر غير متكلف ، وأن تؤدي كل واحدة من السجعتين معنى يختلف عن المعنى الذي يمكن ان تؤديه السجعة الثانية .

والثاني : التصريع ، ويكون في المنظوم دون المنثور .

والثالث : التجنيس، وحقيقته عند المؤلف «أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً(٦٧) ».

والرابع : الترصيع ، وحدّه «أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الاول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية(٦٨)» ومثاله قول الحريري : فهو يطبع الاسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه(٦٩)».

والخامس : لزوم مالايلزم ، ويرى المؤلف أن هذا النوع «أشقّ هذه الصناعة مذهباً»؛ وذلك لان صاحب هذه الصناعة يلتزم مالايلزمه ، ومثاله قول ضياء الدين في فصل من كتاب يتضمن ذم جبان : «إذا نَزل به خَطْب ملكه الفَرَق ، وإذا ضلّ في أمر لم يؤمن الا اذا أدركه الغَرَق(٧٠)» وهذا النوع قريب من السجع إلاّ أنه يزيد عليه في أنّ الحروف التي قبل الفاصلة تكون حرفا واحدا .

والسادس : الموازنة ، وهي : «أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن(٧١)» ويحصل الكلام بذلك «طلاوة ورونق» ويصادف في النفس هوى وقبولا واستحسانا . وهذا النوع قريب من السجع الا انه لايوجد في فواصلها تماثل ، ومثاله قول الله تعالى : (وآتيناهُما الكتابَ المستبينَ ، وهديناهما الصراط المستقيم) .

والسابع : المعاظلة اللفظية ، وهي : التراكب في ألفاظ الكلام ، ومثاله قول المتنبي :

أقِلْ أنِلْ اقْطِعْ احْمِلْ عَلَّ سَلَّ أعِدْ زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ أدْنِ سُرَّ صِلِ

والثامن : المنافرة بين الألفاظ في السبك ، وحقيقته كما يرى ابن الاثير «أن يذكر لفظ او الفاظ يكون غيرها مما هو في معناها اولى بالذكر» ومثاله في الشعر قول المتنبي:

فَلا يُبْرَمُ الأمرُ الذي هو حالِلٌ ولا يُحْلَلُ الأمرُ الذي هو يُبْرَمُ(٧٢)

المقالة المعنوية

أما المقالة الثانية الخاصة بالصناعة المعنوية ، وهي أطول القسمين الأولين ، فحديثه فيها يشتمل على المعاني جملة وتفصيلا . ويرى أن مؤلف الكلام قد يبتدع

بعض المعاني بالنظر الى الحوادث المتجددة ، بحيث لايحتذى فيها على مثال سابق ومنهج مطروق ، وهذا راجع الى مايمكن ان يتحلّى به صاحب هذه الصناعة من ذهن وقاد وخاطر حاضر ، لكن القسم الاكبر من المعاني والذي يستعمله جلُّ ارباب هذه الصناعة هو معروف حاضر لدى الجميع .

ثم يتحدث عن أقسام الفصاحة والبلاغة والتي يرجع بعضها الى اللفظ ، وبعضها الى المعنى ومن هذا النوع الاستعارة ويرى أنها تشبيه حُذف منه المشبه به . ثم يورد سبب تسميتها كذلك فالاصل فيها أنها «مأخوذة من العاريّة الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة ؛ وهي أن يستعير بعض الناس من بعض شيئا ، ولا يقع ذلك الا من شخصين بينهما سبب معرفة مايقتضي استعارة احدهما من الآخر شيئا .. وهذا الحكم جار في استعارة الألفاظ بعضها من بعض(٧٣)» وبعد أن يذكر السبب في تسميتها يبين حدّها ، فهي : «نقل المعنى من لفظ الى لفظ لمشاركة بينهما مع طيّ ذكر المنقول عنه(٧٤)» . ويتكلم عن التشبيه ، ويرى أن مؤلف الكلام «لايعمد اليه الا لضرب من المبالغة(٧٥)» ويقرّر ان الفائدة المستنتجة من التشبيه إنما هي أن يُشبه الشيء بما يطلق عليه لفظة أفْعل ؛ اي ان يشبه بما هو أبين وأوضح او بما هو أحسن منه او أقبح وكذلك يشبه الأقل بالاكثر والأدنى بالأعلى .

وفي سياق حديثه عن المعاني يتكلم عن التجريد الذي هو : «إخلاص الخطاب لغيرك ، وأنت تريد به نفسك(٧٦)» ويرى ان مؤلف الكلام يستعمله اذا أراد التوسع في كلامه . ويظُن المؤلف ظنا لايصل الى مرتبة اليقين ان هذا اللون شيء اختصت به العربية دون غيرها . ومثاله قول الصمة بن عبدالله :

حَنَنْتَ الى ريّا ونفسُك باعَدَتْ ... مزارَك مِنْ ريّا وشَعبا كما معا(٧٧)

ويتناول بالشرح موضوعا في البيان ، هو غاية في الأهمية ، من حيث ان العربية تفردت به دون سواها من اللغات المعروفة آنذاك ، وأعني به «الالتفات» الذي هو مأخوذ أصلاً من التفات الانسان عن يمينه وشماله «وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة ، لأنه ينتقل فيه من صيغة الى صيغة(٧٨)» لفائدة تقتضيه غير ان هذه الفائدة لاتحدّ بحدّ وإنما تنشعب شعبا كثيرة لاتنحصر . ومثاله قوله تعالى : [وقالوا

اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتُم شيئا إدّا} وإنما قيل : (لقد جئتم) وهو خطاب للحاضر بعد قوله (وقالوا) وهو خطاب للغائب لفائدة حسنة ، وهي زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى والتعرض لسخطه ، وتنبيه لهم على عظم ماقالوه ، كأنه يخاطب قوما حاضرين بين يديه منكرا عليهم ومُوَبِّخاً لهم(٧٩) .

ويفصّل في موضوع آخر من موضوعات البيان ، وهو متصل كذلك اتصالا شديدا بالنحو كما يقول لكنه يتعرّض له من جهة اتصاله بالفصاحة والبلاغة ، وهو «توكيد الضميرين» ويعني به تأكيد المتصل بمنفصل أو المنفصل بمتصل أو المتصل بمتصل ، ويشير الى أن التوكيد في الضمائر إنما يكون في معرض المبالغة . ومثاله قول الله تعالى في خطاب موسى عليه السلام : {قلنا لاتخف إنّك أنت الأعلى} فإن موسى لم يكن متيقناً أنه غالب السحرة ؛ فلذلك وكّد خطابه بالضميرين ليكون أبلغ في تقرير ذلك في نفسه (٨٠)»

ويتناول بالحديث موضوع «عطف المظهر على ضميره ، والإفصاح به بعده» والذي غايته تعظيم شأن الأمر الذي أظهر عنده الاسم المظهر ، ومثاله قوله تعالى : {أوَ لم يَرَوا كيف يُبدئ الله الخلقَ ثم يُعيدُه إنّ ذلك على الله يسير ، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم اللّهُ ينشئُ النشأة الآخرة} ثم يقول ابن الاثير «الا ترى كيف صرّح باسمه تعالى في قوله {ثم الله ينشئ النشأة الآخرة} مع ايقاعه مبتدأ في قوله {كيف يبدئ الله الخلقَ} وقد كان القياس أن يقول : كيف يبدئ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة . والفائدة في ذلك انه لما كانت الإعادة عندهم من الأمور العظيمة ، وكان صدر الكلام واقعا معهم في الإبداء ، وقررهم أن ذلك من الله ؛ احتجّ عليهم بأنّ الإعادة انشاء مثل الإبداء ، وإذا كان الله الذي لايعجزه شيء هو الذي لايعجزه الإبداء ، فوجب ان لاتعجزه الإعادة ، فللدلالة والتنبيه على عظم هذا الأمر الذي هو الإعادة أبرز اسمه تعالى ، وأوقعه مبتدأ ثانيا(٨١)» .

ويتكلم كذلك عن موضوع التفسير بعد الإبهام ، والذي يؤتى به للمبالغة ، وتفخيم المبهم وإعظامه ؛ وذلك لأنه أول مايطرق السمع فيذهب به المرء مذاهب شتى حتى يأتي التفسير فيبيّنه ويوضّحه . ومثاله قول الله جلّ و عز (وقضينا إليه ذلك الأمر

أنّ دابر هؤلاء مقطوع مُصبحين) ففسر ذلك الأمر بقوله (أن دابر هؤلاء مقطوع) وفي إبهامه أولا وتفسيره بعد ذلك تفخيم للأمر وتعظيم لشأنه(٨٢)» .

ويقرر في كتابه ان استعمال الشيء العام في حالة النفي أبلغ من استعماله في حالات الإثبات ، وكذلك تستطيع أن تقول ان استعمال الخاص في حالة الاثبات أبلغ من استعماله في حالة النفي .

ويضرب لذلك أمثلة كثيرة منها قوله تعالى {مَثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حَوْله ذهب الله بنورهم} ولم يقل ذهب بضوئهم موازنا لقوله (فلما اضاءت) لأن ذكر النور في حالة النفي أبلغ ، من حيث ان الضوء فيه الدلالة على النور وزيادة، فلو قال ذهب الله بضوئهم لكان المعنى يعطي ذهاب تلك الزيادة وبقاء ما يسمى نورا، لان الاضاءة هي فرط الانارة قال الله تعالى {هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا} فكل ضوء نور وليس كل نور ضوءا ، فالغرض من قوله تعالى {ذهب الله بنورهم} إنّما هو إزالة النور عنهم أصلاً ، فهو اذا ازاله فقد أزال الضوء(٨٣)» .

ويتحدث عن أسلوب التقديم والتأخير ، ويرى المؤلف أنه يقع في الكلام لفائدتين : أما الاولى فهي الدلالة على أهمية المقدّم او المؤخّر ، وأما الفائدة الثانية فهي مراعاة نظم الكلام ؛ وذلك أن يكون تأليفه لايحسن إلا بالتقديم او بالتأخير . ومن الضرب الاول قوله تعالى {أفغيرَ الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ، ولقد أوحي اليك وإلى الذين من قَبْلك لئن أشركت ليَحْبَطن عملك ولتكونَنّ من الخاسرين بل الله فاعبدْ وكن من الشاكرين} فإنه إنما قال {بل الله فاعبد} ولم يقل {بل اعبد الله} لأنه اذا تقدم وجب اختصاص العبادة به دون غيره» . وأما مايختص بمراعاة نظم الكلام فمما جاء منه قوله تعالى {إياك نعبد وإياك نستعين} فإنه قدم المفعول به على الفعل لمكان نظم الكلام ؛ لأنه لو قال نعبدك ونستعينك لم يكن له من الحسن ما لقوله {إياك نعبد وإياك نستعين} ألا ترى انه تقدم قوله تعالى {الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين}(٨٤)»...

وينبّه في موطن من الكتاب على التزام الدقة في الكتابة وتأليف الكلام ، فيطلب من أصحاب هذه الصناعة أن يضعوا الحروف في مواضعها اللائقة بها ، ويقصد

بها حروف الجر والعطف التي كثيراً مايستعملها الناس في غير مواضعها الصحيحة من حيث انهم يخلطون في استعمالات هذه الحروف فيجعلون مثلا ما يجر بـ «على» يجر «بفي» مع أن لكل منهما معنى يختلف عن معنى الآخر ، وكذا الحال بالنسبة لحروف العطف التي لكل منها معنى مختلف ، ولذلك كان من الواجب استخدام هذه الحروف على الوجه الذي ذكرنا . ومن الامثلة التي يوردها للمتوشحين لهذه الصناعة قوله تعالى «{والذي هو يُطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يَشْفين ، والذي يُميتني ثم يحيين} فالأول عطفه بالواو ... ثم عطف الثاني بالفاء لأن الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من احدهما ، ثم عطف الثالث بـ «ثم» لأن الإحياء يكون بعد الموت بزمان ، ولهذا جيء في عطفه بـ «ثم» التي هي للتراخي(٨٥)» .

ويذكر في موطن آخر السبب الذي يمكن ان يعدل من أجله مؤلف الكلام عن استخدام الجملة الفعلية الى الجملة الاسمية او العكس ، وهذا راجع الى حرصه على التاكيد والمبالغة(٨٦) . وينتقل بعد هذا الى الحديث عن بنية الكلمة وكيف أن أية زيادة تطرأ عليها تكسبها زيادة وقوة في المعنى ، وهذا لاريب فيه لبيانه(٨٧) .

ويتكلم عن موضوع يُعتبر عند ابن الاثير «أغرب ماتوسّعت فيه اللغة العربية» ويسميه عكس الظاهر ، وهو نفس الشيء بإثباته ، وذلك أنك تقع على كلام هو في ظاهره نفي لصفة موصوف مثلا ، وهو نفي للموصوف أصلا . وقد ورد منه قول لعلي كرم الله وجهه في وصف مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو : لاتُنثى فَلَتاتُه» اي لاتُشاع سقطاته ولا تُذاع ؛ فظاهر هذا الكلام كما تراه أنه كان ثم فلتات غير أنها لاتُشاع وليس المراد ذلك ، بل المراد أنه لم يكن ثم فلتات فتنثى ، اذ تحاشى مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم أن تسقط فيه أيّ زَلّة أو هفوة(٨٨) .

ويتفرد ابن الاثير من بين علماء البيان العربي في الحديث عن موضوعات في هذا العلم لم يُسبق اليها ، وهي كثيرة في الكتاب ، ومن بينها هذا النوع من الكلام الذي يسميه «الاستدراج» وهو من مستلزمات كل كاتب ناجح ، وحقيقته : جرّ الخصم الى الاذعان والتسليم ؛ ألا ترى أنه اذا لم يستطع الكاتب ان يتفنن في كلامه بحيث يقوى على استدراج خصمه الى القاء يده فهو ليس بكاتب . ويمثل له بهذا الحديث الذي

تفاوض فيه الحسين بن علي رضي الله عنه ومعاوية في أمر ولده يزيد ؛ وذاك أن معاوية قال للحسين : أما أمك فاطمة فإنها خير من أمه ، وبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من امرأة من كلب ، وأما عمي يزيد فإني لو أعطيت به منك ملء الغُوطة لما رضيت ، وأما أبوك وأبوه فإنهما تحاكما الى الله فحكم لأبيه على أبيك ، فقوله : إن أباك وأباه تحاكما الى الله فحكم لأبيه على أبيك ، هذا قول إيهامي يُوهم شبهة من الحق ، وإذا شاء من شاء أن ينافر خصمه ويستدرجه الى الصمت عن الجواب فليقل هكذا(٨٩)» .

ويتكلم عن الإيجاز ، وهو عنده «دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه(٩٠)». وعن الاطناب الذي هو : «زيادة اللفظ على المعنى لفائدة(٩١)» فهو يختلف عن التطويل من جهة أن الثاني يكون بزيادة اللفظ على المعنى لغير فائدة ، ولذلك يعد حشوا لا طائل تحته ، أما الاطناب فإنّما يجيء للتأكيد والمبالغة .

ويتحدث عن التكرار ، وحقيقته عنده «دلالة اللفظ على المعنى مرددا(٩٢)» ومنه ماهو مفيد يأتي في الكلام تأكيدا له ، وقد ورد في القرآن كثيرا ، ومثاله : {قال إنما أشكو بَثي وحُزني الى الله وأعلم من الله ما لاتعلمون} فأن البث والحزن بمعنى واحد وإنما كرره هنا لشدة الخطب النازل به ، وتكاثر سهامه النازلة في قلبه(٩٣)» ومن الألوان البلاغية التي يتحدث عنها في الكتاب كذلك : الاعتراض ويعرّفه بقوله انه الكلام الذي إذا أُدخل فيه بعض الالفاظ وسقطت لبقي على حاله ، وبعضه يأتي في الكلام لفائدة، وقد يأتي لغير فائدة تُرجى منه «ويكون دخوله في الكلام كخروجه منه لايكتسب به حسنا ولا قبحا(٩٤)». ويتكلم على الكناية والتعريض ، ويذهب المؤلف الى أن هذا القسم يُعتبر فيه المعنى ويترك اللفظ جانبا ، والتعريض عنده «كل لفظ يدل على الشيء من طريقه المفهوم(٩٥)» ... فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب : والله إني لمحتاج وليس في يدي شيء وأنا عريان ، والبرد قد آذاني ، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب(٩٦) ثم يورد من الشواهد مايُوضح به هذا اللون ، ومنها أنه وقع على حكاية تعريضية حسنة اثناء قراءته لكتاب العقد ، وهي «أن امرأة وقفت على قيس بن عبادة فقالت : أشكو اليك قلة الفأر في بيتي؛ فقال : ماأحسن ماورّت عن

حاجتها ، املئوا لها بيتها خبزا وسمنا ولحما(٩٧) ويشير ضياء الدين الى ان اللغة العربية لم تنفرد بهذين القسمين من دونها ، وإنما وردا كذلك في غيرها من اللغات مثل السريانية والفارسية .

ويتحدث في المغالطات المعنوية ، وعنده أن هذا القسم من الكلام «من احلى ما استُعمل من الكلام وألطفه(٩٨)» وذلك لما يكون فيه عادة من تورية في الكلام ، ويعرّفه بقوله : «أن يذكر معنى من المعاني له مثل في شيء آخر ونقيض...(٩٩)» ومن الأول الذي يكون له مثل في الاشياء المشتركة ورد قول ضياء الدين من كتاب في وصف كريم : «ولقد نزلتُ منه بمهلّبيّ الصنع ، أحْنفي الأخلاق ، ولقيته فكأني لم أرَعْ ممن أحب بلوعة الفراق ، ولا كرامة للأهل والوطن حتى أقول إني قد استبدلت به أهلاً ووطنا ، وعهدي بالأيام وهي من الإحسان فاطمة فاستوادتها بجواره حسناً(١٠٠) ثم يقول بعد أن يورد هذه القطعة النثرية من كلامه» ، وهذه تورية لطيفة: فإن فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم والحَسَن رضي الله عنهما ولدها ، وفاطمة : هي اسم فاعلة من الفِطام ، يقال : فَطَمَتْ فهي فاطمة ، والحسن هو الشيء الحسن(١٠١)» .

وأما اللون البياني الذي يتلو هذا ويتحدث عنه ابن الاثير فهو الأحاجي والأغاليط من الكلام ، وقد يطلق عليه الألغاز ، والمعمّى أيضا . ويرى ابن الاثير أن الغاية منه هي شحذ القريحة لأنه يشتمل على معان دقيقة يحتاج في استخراجها الى توقد الذهن . ويذكر المؤلف ان الحريري اكثر من الإلغاز في مقاماته عن الابرة والمِرْوَد والدّينار وغيرها(١٠٢) .

ويتحدث عن المبادئ والافتتاحات التي تبدأ بها الكتب ، وهي من شرائط الكتابة وأركانها كما تقدم ، ولا بدّ من ايداعها في كل كتاب بلاغي . والغرض منها أن يجعل مطلع الكتاب دالا على المعنى المقصود من ذلك الكلام ؛ لانه بهذا يمكن للقارئ ان يعرف من بداية الكلام ما المراد به . هذا وينبه المؤلف على ان مراعاة الكاتب لما يذكره في مطلع الكتاب وافتتاح كلامه شيء مهم ؛ وذلك لأنه اول مايطرق السمع من الكلام ، فإن كان لائقا توفّرت الدواعي والاسباب على الاستماع لبقيته . ويرى ان

من محاسن هذا الباب ان يفتتح صاحب هذه الصناعة كتابه بآية قرآنية او حديث شريف أو بيت من الشعر ، ثم يُنشئ الكتاب عليه(١٠٣) وقد أورد ههنا أمثلة كثيرة لينظر فيها المتوشحون لهذه الصناعة ويقتفوا أثرها .

ويتحدث عن ركن آخر من أركان الكتابة وشرائطها ، وهو التخلص والاقتضاب ، وهو مهم وعظيم ، وعلى مؤلف الكلام أن يصرف اليه جلّ همّه كما يقول . والتخلص عنده «أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فبينا هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره وجعل الأول سبباً إليه ، فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض(١٠٤)» . وأما الإقتضاب فإنه ضد التخلص ، وهو أن يقطع مؤلف الكلام كلامه الذي هو فيه ويستأنف كلاماً آخر غيره ، بلا علاقة تكون بينه وبينه . ثم يورد نماذج دالة على هذين القسمين : فممّا جاء من التخلص في المنثور ماكتبه المؤلف الى بعض اخوانه يصف الربيع ، ثم تخلّص من ذلك الى ذكر الأشواق ، قال : «وكما أن هذه الاوصاف في شأنها بديعة ، فكذلك شوقي في شأن بديع ، غير أنه لحرّه فصل مصيف ، وهذا فصل ربيع ، فأنا أملي أحاديثه العجيبة على النوى ، وقد عرفت حديث من قتله الشوق فلا استفيض حديث من قتله الهوى(١٠٥)» .

ويتكلم عن الوجه الذي ينبغي أن يكون عليه أسلوب تقسيم الكلام عند الكتاب ، «فتارة يكون بلفظة «إما» وتارة بلفظة «بين» كقولنا : بين كذا وكذا ، وتارة «منهم» كقولنا : منهم كذا ومنهم كذا ، وتارة بأن يذكر العدد المراد أولا بالذكر ثم يقسم(١٠٦)» ، ثم يورد بعض الأمثلة من المنثور ليدلّل على صحة كلامه هذا ، ومنها ماورد في القرآن الكريم {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات} ، ومما جاء دالا على صحة التقسيم في القرآن الكريم قوله تعالى {وكنتمُ أزواجاً ثلاثة فأصحابُ الميمنة ماأصحاب الميمنة، وأصحابُ المشْأمة ماأصحاب المشأمة والسابقون السابقون(١٠٧)» .

ويتكلم عن قسم بياني آخر ، هو الاقتصاد والتفريط والإفراط ، أما الأول عنده فحقيقته «أن يكون المعنى المضمر في العبارة على حسب مايقتضيه المعبّر عنه في منزلته(١٠٨)» والأمثلة عليه كثيرة لاتحصى ، أما التفريط فمعناه «أن يكون المعنى المضمر في العبارة دون مانقتضيه منزلة المعبر عنه»(١٠٩) وقد جاء عليه قول أبي

نواس يمدح الأمين بن الرشيد من قصيدة ، وهو :

أصبحتَ يا بنَ زُبيدةَ ابنةِ جعفرٍ أملا ، لعَقْد حبالِه استْحكامُ

ويرى ضياء الدين أن ذكر أم الخليفة في هذا الموضع من قبيل التفريط القبيح . أما الإفراط فقد ورد كثيراً ويذهب صاحبنا الى أن استعماله حسن أخذاً بقول من قال: «أحسن الشعر أكذبه» ، ومما جاء فيه قول بشار :

إذا ما غضبنا غَضْبةً مُضريةً هَتَكْنا حِجابَ الشمس أوْ قَطرَتْ دَمَا

ولكن بعضه مستهجن وليس مقبولا كقول أبي نواس :

وأخفتَ أهلَ الشركِ حتى إنه لتَخافكَ النُّطَفُ التي لم تُخلق(١١٠)

ثم يتحدث عن الاشتقاق ، ويجعله المؤلف قسما من أقسام التجنيس ، لكنه تجنيس في المعنى ، وعنده أن الاشتقاق يكون على ضربين ، ويرى أن الاستعمال إنما يقع على الضمير منهما ؛ وذلك لأنّ الالفاظ الواردة عليه كثيرة(١١١) .

ويتبع هذا كلاما عن التضمين ، ويعني به أن يضمن المؤلف كلامه الآيات القرآنية، والأخبار النبوية ، وكلاما آخر لغيره ، وذلك بقصد الاستعانة على تأكيد المقصود من المعنى ، ويشيد المؤلف هنا بالخطيب عبدالرحمن بن نُباتة وخطبه التي كانت حافلة بأنواع من التضمينات جاءت من مواقعها اللائقة بها(١١٢) .

وينتقل بعد هذا الحديث عن الارصاد ، والتوشيح ، وهما لونان خاصان بالكلام المنظوم دون المنثور ، وإن كان الاول منهما ورد منه شيء في القرآن ، وحقيقته «أن يبني الشاعر البيت من شعره على قافية أرصدها له ، اي اعدّها في نفسه ، فإذا أنشد صدر البيت عرف مايأتي به في قافيته(١١٣)» . ومما جاء منه في كلام رب العالمين قوله : {وما كان الناسُ الا امة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقُضي بينهم فيما فيه يختلفون} فإذا وقف السامع على قوله تعالى : {لقضي بينهم فيما فيه} عرف أن بعده (يختلفون) لما تقدم من الدلالة عليه(١١٤)» . أما الثاني (التوشيح) فقد ورد على قلة في المسجوع من الكلام . ويرى المؤلف ان استعمال هذين اللونين في المنظوم لايكون الا قليلاً ، واستعمالهما لايكون حسنا(١١٥) .

ويختم كتابه القيم بحديث طويل في السرقات الشعرية باعتبار أن السرقات ضرب من المآخذ المعنوية ؛ وذلك لأن الشعراء تصرفوا في المعاني المختلفة المشتركة.

الفصل الثالث

ضياء الدين الناقد

١- مواقف من علماء البلاغة قبله

غنيٌ عن البيان ان كثيراً من الدراسات البيانية النقدية كانت نشأت قبل ابن الاثير ، وطبعيٌ أن قسما من هذه الدراسات وربما معظمها او كلها لم يكن ليخل من نواقص وثغرات . وقد كان قدر ابن الاثير ان يتناول بالدرس مايقع عليه منها ويحاول ان يبيّن ماسقط فيها من زلات وهفوات لابقصد التجريح وإنما لتصحيح ماجاء فيها من أخطاء؛ لأن غايته – فيما أرى – كانت لاتتعدى محاولة القرب من الحق وكشف الغثّ من السمين .

هذا وقد حاولت في دراستي لضياء الدين الناقد أن أبين كل الجوانب المهمة في حياته النقدية ، وهي :

يرفض التعميم

فحين يتحدّث عن خصائص اللفظة المفردة ، وينصح الكتاب بمراعاة اختيار الكلمات يشير الى ان من خصائص الكلمة التي يحسُن استعمالها في الكلام ان تكون من أقل الأوزان تركيبا : ثلاثي ، أو رباعي ، أما مافوق ذلك من الأصول فإنه قبيح لايحسُن استخدامه . وهو يتابع في كلامه هذا ماجاء عند ابن سنان في كتابه «سر الفصاحة» لكنه يأخذ عليه تعميمه لهذا الحكم على كل ماورد من مفردات اللغة بحيث يعتبر اللفظة الخماسية والسداسية وما فوقها قبيحة إطلاقاً ، وهذا لايجوز؛ لان هناك من كلمات العربية مايحسُن استعماله وان كانت هذه سبيله ؛ الا ترى الى قوله تعالى : {فسيكفيكهم الله} و {ليستخلفنّهم في الأرض} فإنّ هاتين اللفظتين الاولى منهما تسعة أحرف والثانية عشرة ، ومع ذلك فقد كانت كل منهما حسنة رائقة في موضعها . أما ان يحكم ابن سنان على لفظة «سويداواتها» في بيت المتنبي:

إنّ الكرام بلا كرام منهم مثلُ القلوب بلا سويداواتها

بأنها قبيحة بسبب طولها فهذا غير وارد ؛ ذلك لأن قبحها لم يكن بسبب طولها وإنما لأنها في ذاتها قبيحة اذ وردت مجموعة ، وكانت وهي مفردة حسنة رائقة .

ثم يعقب ابن الاثير بكلام كان ابن سنان الخفاجي قد سبقه اليه ، وهو : وهذا لايعتبر فيه طول ولا قصر ، وانما الذي يعتبر فيه هو نظم تاليف الحروف بعضها مع بعض(١١٦) .

ضعف مواقف الناقدين قبله

ويأخذ ابن الأثير على بعض علماء البلاغة أنهم عابوا بعض الألوان البيانية دون أن يبينوا السبب الذي دعاهم الى ذمّها ، ممّا يحمله على القول بأن عجز هؤلاء وضعفهم هو الذي دفعهم الى اتخاذ مثل هذه المواقف المهزوزة التي لاتستند الى دليل ؛ وإلاّ لماذا عاب بعضهم أن يأتي الكلام مسجوعا ، وقد أتى منه في القرآن الشيء الكثير «حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرهما ، وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور(١١٧)» ويضيف ايضاً : «وقد ورد على هذا الأسلوب من كلام النبي صلى الله عليه وسلم شيء كثير(١١٨)» .

وحين يتحدث عن الالتفات يتعرض لعلماء البلاغة الذين كانوا يرون ان هذا القسم من البلاغة إنما كان عادة جرت عليها العرب في أساليب حديثها ، وقولهم هذا هو «عكاز العميان» لأنّا «نسأل عن السبب الذي قصدت العرب ذلك من اجله» . ويرفض ابن الاثير القول برأي الزمخشري الذي كان يرى أن هذا اللون البلاغي إنما يراد به «التفنن في الكلام ، والانتقال من أسلوب الى اسلوب ، تطرية لنشاط السامع ، وايقاظا للاصغاء اليه(١١٩)» .

ناقد رائع

وأحسّ ان ابن الاثير كان ناقدا من نوع رائع ، لم يمتط صهوة جواد النقد الا بعد ان تكونت لديه ملكة النقد الادبي التي كان زمامها تحكيم الذوق الصحيح . ولذلك نراه يقدّم نقده في إطار من البراهين الساطعة والحجج الدامغة والأدلة الواضحة

التي لاتحتاج الى جدال ولايملك معها الخصم الا التسليم والاذعان . فهذا ابن افلح البغدادي حين يصدر أحكامه من غير تثبت اذ يقول في مقدمته : ان المعاني المبتكرة ليس للعرب منها شيء وانما هي للمحدثين . يواجهه ضياء بالحقيقة التي لاتقبل جدالاً او مناقشة ، وهي : إذا لم يكن الشاعر الجاهلي المتقدم – مثلا– هو أول من ابتدع معنى البكاء على الديار ، فمن يا تُرى يكون ابتداعه؟! مثل هذه الاشياء البدهية التي لاتحتاج الى دليل لايجوز لابن افلح ان يصدر فيها هذه الاحكام السريعة .

ثم نجده يضع لابن أفلح لون الحكم الذي كان ينبغي أن يقرّره : «ولو قال : إنّ المحدثين أكثر ابتداعا للمعاني ، وألطف مأخذا ، وأدقّ نظرا ؛ لكان قوله صوابا ؛ لأن المحدثين عظم الملك الاسلامي في زمانهم ، ورأوا ما لم يره المتقدمون(١٢٠)» .

من هنا نرى أن ابن الاثير كان لايرى كلام غيره من النقاد حجة حتى تحصل لديه القناعة التامة بأنه إنّما كان وصل الى ماوصل اليه بطريق البحث الدقيق والاستقراء الكامل ؛ بعد أن عالج اكبر قدر من المادة التي يريد ان ينتهي منها الى نتائج حقيقية.

ولهذا نراه يهاجم ابن أفلح البغدادي الذي يقول ان العرب لم يكن لهم معنى مبتدع وإنّما المعاني المبتكرة هي للمحدثين ، ويرى أنه واحد من اثنين : «إما ان يكون غير عارف بالمعنى الغريب ، وإما أنه لم يقف على أقوال الناظمين والناثرين ولا تبحر فيها(١٢١)».

المنحى العقلي في نقده

ويتجه ابن الاثير في نقده اتجاهاً علميا منطقيا دقيقا معلّلا ، ينبني على فكر مرتب منظم . استمع اليه بعد ان انتهى من الرد على ابن سنان ، الذي حكم على الاستعارة المبنية على استعارة اخرى بالاطّراح ، يقول : كيف يذم ابن سنان ذلك ، والحال أن «الاستعارة اذا كانت مناسبة ثم بني عليها استعارة اخرى مناسبة فالجميع متناسب» «وهذا أمر برهاني لايتصور إنكاره . ولهذا أشباه ونظائر في غير الاستعارة ؛ ألا ترى أن المنطقي يقول في المقدمة والنتيجة : كل إنسان حيوان ، وكل

حيوان نام ، فكل إنسان نام . وكذلك يقول المهندس في الأشكال الهندسية : «إذا كان خط أ ب مثل خط ب ج وخط ب ج مثل خط ج د ، فخط أ ب مثل خط ج د(١٢٢)» . وهكذا تجده في كل مسألة بيانية ينحو منحى عقليا يحفل بالتحليل الدقيق الذي لايترك فيه مجالا للمناقشة أو الجدل؛ ولو كان هنالك متسع لأوردت الى القارئ -مثلا- ردّه على ماجاء في كتاب «الخصائص» لابن جني من حديث عن الاستعارة(١٢٣) وكذلك على ماجاء في مصنف لأبي حامد الغزالي من حديث على المجاز(١٢٤) ، أو تصحيحه لما ورد عند البلاغيين كأبي هلال العسكري ، والغانمي ، والآمدي ، وابن سنان من خلط الاستعارة بالتشبيه المضمر(١٢٥) .

وأرجو أن لايفسر هذا على أنه تقصير أو عجز من الباحث وإنما أحببت جذب السامع الى قراءة ماورد هناك بنصه ، فإن فعل ، صار لابد الى دراسة كتاب لا وكل الكتب في موضوعه .

دراسات الناقدين قبله مخطوفة

ويقف ضياء الدين عند ماورد في كتب بعض البلاغيين من أحكام مخطوفة لا تستند الى أساس ولا تثبت عند الفحص ، فيكشف فسادها ويبين عيبها ، ويعدّل زللها ؛ فها هو يقع على كلام لأبي العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي ، عار عن الحقيقة ، وهو أن الغانمي ذهب الى أن كتاب الله خال من التخلص ، فينبري له ضياء الدين مثبتاً خلاف قوله ؛ ذلك لأن «حقيقة التخلص إنّما هي الخروج من كلام الى آخر غيره بلطيفة تلائم بين الكلام الذي خرج منه والكلام الذي خرج اليه ، وفي القرآن مواضع كثيرة من ذلك ؛ كالخروج من الوعظ ، والتذكير بالإنذار ، والبشارة بالجنة ، الى أمر ونهي ووعد ووعيد ، ومن محكم الى متشابه ، ومن صفة لنبي مُرسَل وملَك مُنزل الى ذم شيطان مريد وجبار عنيد(١٢٦)» .

وابن الأثير لايقبل من الناقد أن تكون دراسته سطحية عابرة ، لا يحس القارئ بها بأي عمق ؛ فهؤلاء النقاد من علماء البيان الذين يتوقفون عند القشور ولا يصلون دراساتهم الى نتائج حقيقية مقنعة لا تقبل آراؤهم بأي حال ؛ ولهذا نراه يقرر ان

مقدمة ابن افلح البغدادي التي حاول فيها ان يفضّل أقسام الفصاحة والبلاغة ليست بذات قيمة ؛ ذلك لأنه لما تأملها وجدها «قشوراً لا لبّ تحتها»(١٢٧) .

وفيها غلط

ويأخذ على علماء البيان عدم قدرتهم على ميز اللّون البلاغي من غيره ؛ فقد وجد عند بعضهم مثل أبي هلال العسكري ، والغانمي ، خلطا واضطرابا فيما ذهبوا اليه، فهم حين يتعرضون للإطناب يُلحقونه بالتطويل وهو أبعد مايكون عن هذا ، لان التطويل معناه الحشو والزيادة من غير فائدة ، أما الإطناب «فهو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة»(١٢٨) .

وهم يخبطون كثيرا حينما يتحدثون عن التكرير(١٢٩) ، الأمر الذي يثبت أنهم كانوا يخطفون الأحكام دونما تنبه الى مايمكن ان تجرّه عليهم مثل هذه الوقفات السريعة عند المادة من خلط وتشويش .

ويأخذ عليهم كذلك عدم تفريقهم بين الكناية والتعريض ؛ فقد خلطوا بين هذين الموضوعين ولم يتبين لهم الواحد من الآخر ، ويعرض هنا بشكل خاص بالغانمي وابن سنان والعسكري وابن حمدون البغدادي صاحب كتاب «التذكرة(١٣٠)» .

ويسجل عليهم تفريقهم بين التشبيه والتمثيل ، وهما في الحقيقة أمر واحد ؛ لأنك تقول : شبهت هذا الشيء بهذا الشيء ، كما تقول مثلته به(١٣١) .

ويأخذ على أبي علي الفارسي خلطه بين التجريد الذي هو «إخلاص الخطاب لغيرك ، وأنت تريد به نفسك» وبين التشبيه المضمر الأداة(١٣٢) .

وكذلك يتعرض لهم حين لم يجدهم يقسمون المعاظلة الى قسميها اللذين يذهب اليهما هو ، وهما : اللفظي والمعنوي(١٣٣) .

ويصحح ماذهب اليه غيره

وقد تقدم أن ابن الاثير كان حريصا على الاقتراب من الحقيقة وبيان الصحيح من الفاسد ، ولهذا نراه يصحح ماذهب اليه غيره من الدارسين حين قسموا الكناية الى أقسام ثلاثة ، هي : التمثيل ، والإرداف ، والمجاورة . وعنده أن هذا التقسيم غير

صحيح ؛ «لأن من شرط التقسيم أن يكون كل قسم منه مختصاً بصفة خاصة تفصله عن عموم الأصل ، كقولنا : الحيوان ينقسم أقساما منها : الإنسان وحقيقته كذا ، ومنها الأسد وحقيقته كذا ، ومنها الفرس وحقيقته كذا ... وههنا لم يكن التقسيم كذلك ؛ فإن التمثيل عبارة عن مجموع الكناية ؛ لأن الكناية إنّما هي أن تُراد الاشارة الى معنى فيوضع لفظ لمعنى آخر ، ويكون ذلك اللفظ مثالا للمعنى الذي أُريدت الاشارة اليه(١٣٤)».

وقد رأيناه يصحح كذلك ماذهب اليه قدامة بن جعفر من أن المعاظلة هي : «أن يدخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه ...» وعنده أن التعاظل ليست هذه حقيقته بل هو التراكب في ألفاظ الكلام أو في معانيه(١٣٥) .

ويأتي بمادة من هذه الدراسات

وقيمة الكتاب في رأيي آتية ، في بعض جوانبها ، من أنه حفظ لنا ما كان معروفا من دراسات بلاغية ونقدية قبل ابن الاثير ، يشير اليها في كثير من الأحيان ؛ فحين تحدث عن التجنيس أشار الى أن هناك كثيرا من العلماء صنفوا كتبا فيه ومن هؤلاء عبدالله بن المعتز ، وأبو علي الحاتمي ، والقاضي أبو الحسين الجرجاني(١٣٦) وقدامة بن جعفر الكاتب ، وغيرهم(١٣٧) . ثم يأتي بمادة صالحة من هذه الدراسات يُدلل بها على صدق كلامه ويعزز بها مايتخذه من أحكام . استمع اليه – مثلا– وهو يتحدث عن النوع الرابع من المشبه بالتجنيس وهو المعكوس ، ومثاله عنده «عادات السادات سادات العادات» ... وقد سماه قدامة بن جعفر «التبديل» ... ومثله قدامة بقول بعضهم : اشكر لمن أنعمَ عليك ، وأنعم على من شكرك»(١٣٨) .

وحين يتحدث عن خصائص اللفظة المفردة وينصح الكتاب بمراعاة انتقاء الكلمات التي يحسُن استخدامها كأن لا تكون مبتذلة بين العامة ويذكر بعض الألفاظ القبيحة مما ورد في الشعر وكان منكراً يمجه الذوق ، نراه يشير هنا الى مصنف الشيخ ابن الجواليقي المسمى بـ «اصلاح ماتغلط فيه العامة» لأنه يتناول من الألفاظ ما هذه سبيله(١٣٩).

رفض مالم يلتزم شروط الكتابة

لم يكن ابن الاثير الذي جهد كثيرا ليرسم للكتاب طريقا يسيرون عليه بالناقد الذي يرضى عن الكتابة اذا تبين له أنها أخلّت بشيء من مقوماتها وأركانها ، فها هو يتصدى لواحد من مشاهير كتاب عصره وهو أبو اسحق المعروف بالصابي ، ويرى ضياء الدين ان اكثر مطالع كتب هذا الرجل بما تتضمن من تحميدات وأدعية لم تكن تتناسب مع موضوع ذلك الكتاب ، وإنما تكون في واد والكتاب في واد : استمع اليه وقد وضع كتابا يتضمن فتح بغداد لتجد صحة مايقوله المؤلف : «الحمد لله رب العالمين ، الملك الحق المبين ، الوحيد الفريد ، العليّ المجيد ، الذي لايوصف الا بسلب الصفات ، ولا ينعت الا برفع النعوت ، الأزلي بلا ابتداء ، الأبدي بلا انتهاء ، القديم لا منذ أمد محدود ، الدائم لا الى أجل معدود ، الفاعل لا من مادة استمدها ...» ويعقب ابن الاثير على ذلك بقوله : «وهذه التحميدة لاتناسب الكتاب الذي افتتح بها ، ولكنها تصلح أن توضع في صدر مصنف من مصنفات أصول الدين(١٤٨)» .

رفض التلاعب بالألفاظ

ويهاجم ابن الاثير كل اولئك الكتاب الذين جعلوا همهم وديدنهم في الكتابة التلاعب بالكلمات اعتقادا منهم أن ذلك وسيلة الى اظهار المقدرة والبراعة ، في حين ان ذلك ليس الا مهارات وبلهوانيات بعيدة عن موضوع البيان الذي هو الفصاحة والبلاغة . ومن هؤلاء الذين يوجه اليهم سهام نقده الحريري صاحب المقامات ؛ فهذه الرسائل التي تخرج من بين يديه وبعض الفاظها معجم ، وبعضها مهمل «خارجة عن باب الفصاحة والبلاغة ، لأن الفصاحة هي ظهور الألفاظ مع حسنها ، وكذلك البلاغة فإنها الإنتهاء في محاسن الالفاظ والمعاني»(١٤٩) .

وفي موضع آخر لايقرّ له مذهب اليه أيضا في إنشاء رسائله على مثل ذلك النحو، فهاهو الحريري يضع كتابين ، تجد حرف السين في كل كلمة من كلمات الأول، وحرف الشين في كل لفظة من الفاظ الثاني فجاء «كأنهما رُقى العقارب(١٥٠)».

رفض التكلّف

وابن الاثير يجري في كتابته على السليقة ، وألوان البيان وصنوفه إنما تأتيه هكذا بالاتفاق(١٥١) وعفو الخاطر وربما اعمال اي قدر من الجهد ، في حين أن الآخرين يتكلفون كل ذلك ويسعون اليه . ألا ترى – مثلا– أنه اذا ورد في كلامه شيء من السجع كانت كل سجعة تشتمل على معنى يغاير ما اشتملت عليه أختها «وإني لما سلكت هذه الطريق وأتيت بكلامي مسجوعا توخيت ان تكون كل سجعة منه مختصة بمعنى غير الذي تضمنته أختها ، ولم أخِلّ بذلك في مكاتباتي كلها»(١٥٢) .

فمما جاء من ذلك ماكتبه في جواب كتاب يتضمن إباق غلام ، يقول : «وأما الاشارة الكريمة في أمر الغلام الآبق عن الخدمة فقد يفر المهر من عليقه ، ويطير الفراش الى حريقه ، وغير بعيد ان ينبو به مضجعه ، أو يكبو به مطمعه ، فيرجع وقد حمد من رجوعه ماذمه من ذهابه ، وعلم ان الغنيمة في إيابه ، فما كل شجرة تحلو لذائقها ، ولا كل دار ترحب بطارقها ...(١٥٣)» ثم هو يطلب ممن يقرأ كلامه هذا أن يتأمل في هذه الأسجاع ويرَ ان كان هناك سجعة واحدة تتفق مع جارتها في المعنى.

أما غيره من الكتاب المفلقين فلم يكونوا بقادرين على أن تكون كل سجعة من سجعاتهم تختص بمعنى يختلف عما اختصت به أختها ، أنظر الى كلام الصابي من تحميد له في كتاب «الحمد لله الذي لا تدركه الأعين بألحاظها، ولا تحدّه الألسن بألفاظها ، ولا تخلقه العصور بمرورها ، ولا تهرمه الدهور بكرورها(١٤٥)» هل ترى أن هنالك فرقا بين مرور العصور وكرور الدهور ؟! وعلى منواله نسج الصاحب بن عباد أيضا بعض كلامه ، استمع اليه وهو يحاول ان يصف مهزومين «طاروا واقين بظهورهم صدورهم ، وبأصلابهم نحورهم(١٥٥)» .

قسوة وتجريح

وتتصف مواقفه من بعض الكتاب بالقسوة الشديدة ، وبخاصة حين يحاول بعضهم ان يمتطي صهوة جواد الكتابة ، ويدعي لنفسه التقدم والسبق في حين أنه

ويرجح بعضها

وإن تبين له ، بعد معالجته لمادة السابقين بالدراسة والمقارنة والبحث ، صحة بعضها تجده يرجح مايراه صوابا ؛ فهو في بداءة حديثه عن «الإفراط» يذكر أن قوما ذموه وحمده آخرون ، ويذهب هو الى أن استعماله حسن ، لأن «أحسن الشعر أكذبه»(١٤٠).

عنف وحدّة

وقد يتصف نقده أحيانا بالعنف والحدة ، فيسم مايصل اليه غيره من نتائج بالظن والتقليد دون التثبت واليقين ؛ فها هو محمد بن سنان يرى أن الأدب – من منظور ومنثور – لا ينبغي أن تستعمل فيه «ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم ، ولا الالفاظ التي تختص بها بعض المهن والعلوم» . فيثبت له ضياء الدين أن هذا الكلام غير وارد إطلاقا ؛ ذلك لأن صنعة الأديب تتصل بكل معنى لأنها «مستمدة من كل علم وكل صناعة ... وكل فن من الفنون» ولهذا كان طلب الى المتوشح للكتابة أن يعي ماجاء في صدر كتابه من نصائح وتوجيهات ويترك ماعداه «فليس القائل بعلمه واجتهاده كالقائل بظنه وتقليده(١٤١)» .

وقد يصف بعض من يؤلفون الكلام بسبب عنادهم ومكابرتهم بالجهل وفساد ماذهبوا اليه(١٤٢) .

ويرفض ابن الاثير حكم الهوى ، والتعصب القائم على غير أساس ؛ ولهذا تراه يهاجم شخص أبي العلاء بقسوة ؛ لأنه أفرط في تقديره لأبي الطيب المتنبي فاعتقد أن «ليس في شعره لفظة يمكن ان يقوم عنها ماهو في معناها فيجيء حسنا مثلها» وهذا غير صحيح «لكن الهوى كما يقال أعمى ، وكان أبو العلاء أعمى العين خِلقة وأعماها عصبية ، فاجتمع له العمى من جهتين(١٤٣)» .

إفحام الخصم

وهو حين يريد أن يسكت خصما من علماء البيان بسبب ماينشأ من خلاف حول

مسألة بيانية تجد أن غاية ما يفعله المؤلف هو أن يرد الخصم للنظر في أعظم المصادر التي يأخذ منها مادته ، وهو القرآن الكريم ، ليتبين له صحة دعواه(١٤٤) .

خبرة وممارسة

وهو ناقد يصدر في آرائه ونظرياته عن خبرة وممارسة ، ولا يتكلم الا بعد بحث ودرس وتنقيب وتنقير كما يقول ؛ حتى انه حين أراد ان يحفظ الشعر لم يقصد الى حفظه اتفاقا وإنما عدل اليه نظرا واجتهادا بعد أن وقف على أشعار الشعراء قديمها وحديثها حتى انه لم يترك ديوانا لشاعر مفلق الا درسه فلم يجد أجمع من ديوان أبي تمام وأبي الطيب للمعاني الدقيقة ، ومن ديوان البحتري سبكا للالفاظ على المعاني (١٤٥) .

٢- مواقف من الكتاب

مطالبتهم بالتزام الدقة

فهو مثلا يأخذ على القاضي الفاضل ، رئيس ديوان المكاتبات في ذلك العصر ، عدم التزامه بالدقة في بعض كتبه التي أرسلها على لسان السلطان الى ديوان الخلافة ببغداد في سنة ٥٧١هـ ، يقول : «ولما تأملته وجدته كتابا حسنا قد وفى فيه الخطابة حقها ، الا أنه أخل بشيء واحد ؛ وهو أن مصر لم تفتتح الا بعد ان قُصدت من الشام ثلاث مرات(١٤٦)» .

رفض الضعف والركاكة

فقد تعرض لابن زياد البغدادي الكاتب ؛ لانه وجد بين ثنايا كتاب له كلاما ضعيفا ركيكا فيه غثاثة ، لكن ابن الاثير لم يبين وجه الضعف فيه . ورأى أن من الأليق والأحسن من هذا الكاتب ان يذكر كلاما فيه ذلاقة ورشاقة(١٤٧) .

احوج الى التعليم من صبيان المكاتب ، وهؤلاء عنده بلغوا من الحمق درجة لم يعرفوا معها قدر انفسهم «فقاتل الله القلمَ الذي يمشي في أيدي الجهال الأغمار ، ولا يعلم أنه كجواد يمشي تحت حمار(١٥٦)» .

وكيف يدّعي مثل هؤلاء فضيلة الكتابة وإتقان هذا الفن ، وهو ليس بالأمر السهل؛ فتعلمه يحتاج الى وقت طويل ربما يمتد لسنين طويلة في حين ان غيره من العلوم التي يتصور الآخرون انها صعبة كالطب والهندسة لا تمتد الفترة في تعلّمها الى اكثر من سنتين(١٥٧).

واكثر مايغيظه ويسوءه من الكاتبَ الجاهل هو عناده ومكابرته ؛ فهؤلاء الذين لاتخرج كتابتهم عن ألفاظ مسجوعة لا طائل تحتها ، اذا حاولت ان ترشدهم وتقول لهم : إن السجع ليس مجرد ألفاظ مُفَصَّلة وإنما هو أمر أهم من ذلك ؛ إنه عناية بالمعاني أيضا والأمر لايتعلق بزخرفة الألفاظ وحسب ، ردوا اهتمامهم بالألفاظ الى عناية العرب بها قبلهم ، وهذا عار عن الصحة ، لان العرب انما كانت تعني بالفاظها فتهذبها وتنتقيها لأنها لباس المعنى الشريف(١٥٨) .

ويتقبل ماورد لبعضهم احيانا

ويقر ابن الأثير بفضل ماذهب اليه بعضهم ، ويتخذ مادته شاهدا يقوي مايقرره من أحكام ؛ ففي حديثه عن الترصيع مثلا يورد كلاما للحريري جاء في مقاماته ، يوضح به المؤلف حقيقة هذا اللون البلاغي الذي لايكون الا في المنثور من الكلام ، يقول : «فمما جاء من هذا النوع منثورا قول الحريري في مقاماته : «فهو يطبع الاسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه(١٥٩)» .

احساسه بشخصيته

وفي مواقفه من الكتاب يجعلك هذا الرجل تحس اعتداده بذاته واعجابه بنفسه ؛ ففي موقفه السابق من القاضي الفاضل حين أخذ عليه عدم التزامه الدقة في كتابته، اتبع كلامه بعبارة تستشعر معها أن هذا الرجل كان شديد الحساسية لذاته ، فتشعر

بشخصيته فيما يكتب ؛ استمع الى قوله : «وعجيب من عبدالرحيم بن علي البيساني – مع تقدمه في فن الكتابة – كيف فاته ان يأتي به في الكتاب الذي كتبه(١٦٠)» .

وكان له مثل ذلك في موقفه الآنف ايضاً من ابن زياد البغدادي ، فبعد ان أخذ عليه غثاثة كلامه دفع عبارته المشهورة : «وما أعلم كيف شذّ عن ابن زياد أن يأتي به [بالألفاظ الرشيقة] مع أنه كان كاتبا مفلقا أرتضي كتابته ، ولم أجد في متأخري العراقيين من يماثله في هذا الفن(١٦١)» .

ليس في مثل هذه العبارات الا شيء واحد يدركه كل قارئ : انه غرور هذا الرجل واعتداده بنفسه واعتزازه بأدبه كان يحمله على انتقاد كل صاحب قلم في مصر والعراق وغيرهما ، وبخاصة اذا كانوا من مشهوري عصرهم ؛ فذلك يجعله من ذوي المكانات المرموقة . ومن مظاهر هذا الافتتان بالذات أنه كان ينسب كثيرا من ألوان البيان ومعانيه البديعة لنفسه وينفيها عن غيره ، وان وردت في أدبهم فعلى قلّة(١٦٢) وكثيراً ماتجده يقول : «وأنا انفردت بذلك دون غيري من الكتاب(١٦٣)» أو «وأنا انفردت باستخراجه» وكل مايعطي هذا المعنى .

٣- مواقف من علماء العربية

غير مؤهلين للحكم في مسائل البيان

ويذهب ابن الاثير الى أن هؤلاء ليس من حقهم أن يتعرضوا في دراساتهم لاسرار الفصاحة والبلاغة ؛ ذلك لأن وظيفتهم تنحصر في ناحية معينة ؛ وهي الحكم في مسألة نحوية او صرفية او لغوية ؛ وهم ليسوا بمستوى يؤهلهم للحكم في ألوان البيان ، وان فعلوا ذلك أو حاولوا خرجت بهم المحاولة الى فضائح كانوا في غنى عنها وأظهرت عجزهم . من هذا المنطلق يأخذ ضياء الدين على صاحب الفصيح اختياره لبعض الالفاظ مما لا يجد فيها المتأمل شيئا من فصاحة(١٦٤) وكذلك يأخذ على أبي الفتح ابن جني تفسيره لبيتي المتنبي في كتابه الموسوم بـ «المفسر» وهما :

كُلّ جريح تُرجَى سلامتُهُ ... الا جريحاً دَهَتْه عيناها

تَبُلّ خَدَيَّ كلما ابتسمت ... مِنْ مَطَـرٍ بَرْقُه ثناياها

وقد ذهب ابن جني في وهمه الى حد ان قال : انها كانت تبزق في وجهه . ويعقب ابن الاثير على ذلك بقوله : «واذا كان هذا قول امام من أئمة العربية تُشدُّ اليه الرِّحال فما يُقال في غيره ؟! لكن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والإعراب(١٦٥)» . والحق ان ضياء الدين كان على حق ، فما من أحد يسمع كلام أبي الفتح ويستذكر شخصية المتنبي القوية المعتدّة بنفسها ، الا رماه بالإسفاف .

اعتبار الزمن في تفضيل الأدب سخف

ولم يكن ابن الأثير بالناقد الذي يفضل القديم لتقدّمه ويحطّ من الجديد لتأخره ؛ لأنه ليس ممن يأخذون بالتقليد والتسليم بل هو من هذه الفئة التأثرية التي تحكّم ماركب الباري فيها من ذوق في النظر الى النصوص شعرها ونثرها ؛ ولذلك لم يكن ليرضى عن مواقف أمثال ابي عمرو بن العلاء إذ سُئل عن الأخطل فقال : «لو أدرك يوماً واحداً من الجاهلية ماقدّمت عليه أحدا(١٦٦) .

٤- تأثره بالنقاد السابقين

ابن سنان وابن الاثير في مادته هذه تأثر ببعض الدراسات النقدية السابقة ، وبخاصة تلك الدراسات التي ظهرت في القرن الخامس الهجري ، واهتمت بأسلوب تأليف العبارة ، وأعني بها أولاً دراسة ابن سنان الخفاجي في «سر الفصاحة» وتركيزه على القضايا الصوتية التي تتناول حروف الكلمة وكل هذا قاده للاهتمام بالكلمة المفردة ، لكنه لم ينكر الدور الكبير للعلاقات بين المفردات . هذا وسبق أن بينا كيف ان ضياء الدين اهتم باللفظة المفردة وخصائصها حتى تكون حسنة ، وحروفها وكيف ان اجتماع بعض الحروف ينشأ عنه ثقل الكلمة على اللسان ، وكذلك حركاتها التي تكون فوق الحروف كيف ينشأ عنها رشاقة الكلمة وعذوبتها ان كانت خفيفة ، وثقلها وعسرها على النطق إن كانت ثقيلة ، وكيف أن تتابع الحركات أيضاً له أثر في جعل الكلمة جميلة أو قبيحة .

انظر في حديثه عن لغة تأليف الكلام تجده يدرس حروف العربية ويذهب الى أن بعضها مما يجب على صاحب صناعة الكلام أن يتجنبه ، وذلك لانه يضين به مجال الكلام . ومن هذه الحروف : «الثاء ، والذال ، والخاء ، والشين ، والصاد ، والطاء ، والظاء ، والغين(١٦٧)» . ويرى ابن الاثير ان في الحروف الباقية مندوحة عن استعمال ما لايحسن من هذه الاحرف المشار اليها .

على أنه يقرّر ايضاً ان هذه الحروف لاتجري على حال واحدة من كراهة الاستعمال ، وإنما هي متفاوتة في ذلك ، لكن اكثرها كراهية في الاستخدام أربعة ، وهي : الخاء ، والصاد ، والظاء ، والغين . وما يتبقى منها يكون الأمر فيه أقرب حالا(١٦٨).

وعنده أن طريقة سبك الحروف وتركيبها الى جانب بعضها مهمة في تأليف الكلمات التي يحسُن استعمالها ؛ ولذلك ينصح الكتّاب بتجنب الالفاظ التي هي مؤلفة من حروف يثقل النطق بها؛ ولهذا هو لايرضى عن اجتماع حروف التاء والشين والزاي في لفظة «مُستشزرات» من بيت امرئ القيس :

غدائره مستشـزرات الى العلا تضل المدارى في مثنى ومرسـل

لأن لفظة «مستشزرات» مما يقبح استعمالها ؛ لانها تثقل على اللسان ويشق النطق بها ، وسبب ذلك أن الشين قبلها تاء وبعدها زاي(١٦٩) .

ويرى ان من خصائص الكلمة التي يحسن استخدامها أن تكون مبنية من حركات خفيفة ؛ وذلك حتى يسهل النطق بها ، يقول «فإذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم تستثقل ، وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة ، فإذا توالى منها حركتان في كلمة واحدة استثقلت .. ومثال ذلك أنا اذا أتينا بلفظة مؤلفة من ثلاثة أحرف وهي «ج ز ع» فإذا جعلنا الجيم مفتوحة فقلنا الجَزْع او مكسورة فقلنا الجِزْع كان ذلك أحسن من أن لو جعلنا الجيم مضمومة فقلنا الجُزع ، وكذلك إذا والينا حركة الفتح فقلنا الجَزَع كان ذلك أحسن من موالاة حركة الضم عند قولنا الجُزُع(١٧٠)» .

لكن هذا لايمنع عنده أن تكون هنالك بعض المفردات مبنية على حركات ليست بخفيفة .. ذلك لا ينبو عنها السمع ؛ الا ترى ان لفظة سُقُر في قوله تعالى : {ان

المجرمين في ضلال وسُعُر) لم تحدث ثقلا ولا كراهة ؛ إلا ان هذا لايُنقص ماكان قرّره ؛ لان الغالب ان يكون توالي الضم مستثقلا(١٧١) .

عبدالقاهر الجرجاني أما الدراسة الثانية التي تأثر بها ضياء الدين فهي دراسة عبدالقاهر الجرجاني ٤٧١هـ ، لنظام تركيب العبارة والتي تعرف بنظرية «النظم» Syntax وهي محور كتابي عبدالقاهر : «دلائل الاعجاز واسرار البلاغة» ، التي يؤكد فيها ان قيمة الالفاظ انما تكتسب من موقعها من النظم . هذا والغريب ان عبدالقاهر استطاع ان يصل الى نفس النتائج التي يقول بها النقاد المعاصرون ؛ ولهذا استحق ان يعرف في دنيا النقد بخير النقاد العرب . وقد كنت ألمعت في حينه الى ماجاء في كتاب ابن الاثير من اهتمام بتركيب الجملة ، استمع اليه وهو يتحدث عما يحتاجه صاحب صناعة تأليف الكلام من «نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها ؛ لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها(١٧٢)» .

٥ – حديثه عن الموهبة

الطبع

ويعرض ابن الاثير لقضايا مهمة في عالم الأدب ، ومنها حديثه عن الموهبة ويسميها بـ «الطبع» وغني عن البيان ان مايمنحه بعض الافراد من مواهب واستعدادات فطرية يكون حافزا لعمليات الابداع والابتكار ، وبدونها لايكون هناك خلق . والموهبة ملكة كامنة في الانسان ، ومثالها عند ضياء الدين : «كمثل النار الكامنة في الزناد ، والحديدة التي يُقدح بها ...(١٧٣) لكن هذا الذكاء الذي يولد مع الانسان كمثل المشعل المتقد يخبو اذا لم يجد الصقل والشحذ ؛ وذلك يكون عند الكاتب بالاحاطة بأدوات علم البيان وآلاته .

اختلاف الطبع

وهذه الملكة الذهنية تختلف في ماهيتها من انسان لآخر ؛ ولهذا رأينا بعضهم وُهب ملكة الشعر ، وبعضهم وهب ملكة الكتابة ، وكان منهم القصّاص ، والمسرحي ، والموسيقي ، والرسام ، ورأينا كلا يُبدع في مجاله الخاص به فإذا ما حاول ان ينفذ الى ناحية اخرى ليس لديه استعداد وتهيؤ لها نكص على عقبيه . وكان ابن الاثير قد أدرك ببصيرته الناقدة كل ذلك ، كيف لا ؟ وهو الذي يقول : «وكثيراً ما رأينا وسمعنا من غرائب الطباع ثم تعلم العلوم حتى ان بعض الناس يكون له نفاذ في تعلّم علم مُشكل المسلك صعب المأخذ ، فإذا كلف تعلم ماهو دونه من سهل العلوم نكص على عقبيه ... فهذا الحريري صاحب المقامات ، قد كان – على ماظهر عنه من تنميق المقامات – واحدا في فنه ، فلما حضر ببغداد ووقف على مقاماته ، قيل : هذا يستصلح لكتابة الانشاء في ديوان الخلافة ، ... فأحضر ، وكلف كتابة كتاب ، فأفحم ، ولم يجر لسانه في طويلة ولا قصيرة(١٧٤) ».

ونزيد فنقول : لكن هذا لايمنع من ان بعض الافراد منحوا اكثر من موهبة واحدة، الا ترى ان كثيراً من اعلام الفن والادب في كل العصور اجتمع لهم اكثر من طبع واحد ، بحيث ترى انساناً بعينه ينظم القصيدة الجميلة ، ويرسم اللوحة الرائعة ، ويعزف اللحن العظيم!

٦- الحكم على الأدب

الذوق وضياء الدين من فئة من النقاد تؤمن بالذوق الأدبي ، وترى أن البيان إنما يتعلّمه الانسان عن طريق الذوق ؛ لان المعرفة الحقيقية لهذا العلم كما يقول : «إنما تعود على الخواطر ، ولاتنطق به الدفاتر (١٧٥)» .

الدّربة وتربية الذوق عنده إنما تكون بجهود ذاتية متواصلة من الدراسة والدربة أو كما يقول« بالدربة والادمان لأنه أجدى نفعا وأهدى بصرا (١٧٦)» .

ولهذا كان ينصح من أراد أن يتعلم الكتابة ، وكان عنده طبع مجيب ، أن يكثر من حفظ الدواوين ولايقنع بالقليل من ذلك ، لأن سبيله إلى إتقان هذا الفنّ إنما يكون

بكثرة الإدمان ليلا ونهارا ومداومة مطالعة الأخبار والإكثار من استعمالها ، ولايزال على ذلك مدة طويلة حتى تُرقم على خاطره ويصير له ملكة (١٧٧).

ونجده وهو يتحدث عن اللغة التي يؤلف بها الكلام يرى أن الألفاظ التي يسوغ استعمالها في الكلام المنثور يسوغ استعمالها في المنظوم ، وليس كل مايسوغ استعماله في المنظوم يسوغ استعماله في المنثور . ويُردف هذا بقوله : « وذلك شيء استنبطته واطلعت عليه لكثرة ممارستي لهذا الفن ، ولأن الذوق الذي عندي دلني عليه، فمن شاء فليقلدني فيه ، وإلا فليدمن النظر حتى يطلع على ماطلعت عليه (١٧٨)».

وفكرة المطالعة والدراسة ماتزال صحيحة حتى الآن ، وبدون ذلك لايتربى ذوق ولانقد ، إذن فليكن الانسان على إلف بأكبر قدر من النصوص الأدبية . هذا وقد أشار ابن خلدون في مقدمته العظيمة الى ماللدراسة النصوص الادبية الرفيعة من أثر في تربية الذوق (١٧٩) .

وقد حدثنا ابن الأثير انه في اثناء تصفحه للأشعار وقراءته لقديمها وحديثها ، وحفظه لما يحفظ منها ، كثيرا ما كان يجد لما يرد فيها من الكلمات الجامعة «نشوة كنشوة الخمر ، وطربا كطرب الألحان (١٨٠)» وقد وردت هذه العبارة بنصّها مرات في الكتاب (١٨١).

وكثيرا ماكان يجد أن انتقال اللفظة من صيغة إلى صيغة أو من وزن إلى وزن يجعلها قبيحة بعد أن كانت حسنة أو العكس ، وهذا كما يقول لايدركه إلا الذوق الصحيح ؛ فمن ذلك لفظة خود التي تعني المرأة الناعمة ، إذا انتقلت هذه الكلمة إلى الفعلية وقيل مثلاً : خَوَّدَ البعير بمعنى أسرع ، يُلاحظ أنها كانت على الصيغة الأولى رائقة حسنة. أما حينما حُولت الى الفعلية فقد قبُحت (١٨٢).

وقد توصل الى أن هنالك من الكلمات مايعدل عن استعمالها من غير أن يكون هنالك دليل يقوم على تركها ، وهذا عنده يرجع الى حاكم الذوق السليم ؛ ومثالها لفظة «اللب» التي لايحسن استعمالها مفردة مع أنها خفيفة على النطق وليست بمستكرهة ، أما مجموعة فقد وردت مرات في القرآن الكريم وكانت جميلة ، مثل قوله تعالى : (وليتذكر أولو الألباب). وقد تستعمل مفردة ولكن بشرط أن تكون مضافة أو

مضافا إليها : أما كونها مضافا إليها فقد وردت في قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حـــور قتلنـــا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهنّ أضعفُ خلق الله إنسانا

وأما كونها مضافة فكقول النبي صلى الله عليه وسلم : «مارأيت ناقصات عقل ولا دين أذهب للب الحازم من إحداكن يامعشر النساء». ثم يتبع ذلك بقوله : وهذا كله يرجع الى حاكم الذوق السليم ؛ فإن صاحب هذه الصناعة يصرّف الألفاظ بضروب التصريف فما عَذُب في فمه منها استعمله ، ومالقظه فمه تركه (١٨٣).

الفصل الرابع

ضياء الدين الكاتب

١- صناعة ابن الاثير

فكرة الحل وتقوم صناعته في أساسها على الاستمداد من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والأخبار النبوية ، والشعر العربي قديمه وحديثه . والاعتماد في كل ذلك على مايسميه بـ فكرة الحل أو فك الآية والحديث والخبر وبيت الشعر . وقد ادرك ابن أبي الحديد طريقته هذه وأعجب بها وأشار الى أن صناعة ضياء الدين كلها من هذا الباب (١٨٤). ولاغرو فالمؤلف يصرح أنه من خلال ممارسته للكتابة تكشفت له أسرارها ، وأبانت له عن جواهرها وكنوزها ، فما وجد «أعون الأشياء عليها إلا حل آيات القرآن الكريم ، والأخبار النبوية وحلّ الأبيات الشعرية (١٨٥)» وذلك بعد أن يتكثر لدى الكاتب حفظ الآيات والأحاديث والأخبار والأشعار التي هي كما قال وألمعت إليه في حينه : رأس أدوات الكتابة وعمودها وذروة سنامها .

وربما يأخذ المعنى من تلك المواد فيجعله – كما يقول – مثل الأكسير في صناعة الكيمياء ، ثم يخرج منه ما ليس فيه : ألوانا مختلفة من جوهر وذهب وفضة (١٨٦).

وهذه الطريقة التي سلكها في تأليف الكلام لم يسبقه أحد إليها فهو مخترعها وكان ابن عذرتها(١٨٧) . وهذه نماذج من كتابته نوردها ونبين من اي تلك المواد أخذها : ذكر في دعاء كتاب من الكتب «وصل كتاب الحضرة السامية أحسن الله أثرها ، وأعلى خطرها ، وقضى من العلياء وطرها ، وأظهر على يدها آيات المكارم وسورها ، وأسجد لها كواكب السيادة وشمسها وقمرها...(١٨٨)» وهذا المعنى كما يقول : «نقلته عن قصة المنام» في سورة يوسف . ومن كتابته : «ليس الصديق من صرى أخلاف وُدّه وغش في صفقة عهده ، بل الصديق من لاترد سلعة وُدّه بإقالة ولا عيب ، ولاتخص محافظة إخائه بشهادة دون غيب فذلك أخي من غير نسب ، وكترى من غير نَشَبْ(١٨٩)» وهذا كما يقول : مأخوذ من الفقه في تصرية ضرع الشاة البيع، وذلك يوجب الرد .

وله من كتاب في شكوى الزمان وذم الدنيا : «أنكاد الدنيا مشوبة بالأشياء التي جُبِلت النفوس على حبها ، وكل ماتستلذه الأبدان من مآكلها ، فإنه يذمّرها من جهة مليّها .. وأعجب من ذلك أنه لا ينتفع الانسان بشيء من لذاتها الا ضرّه من جهة ثوابه ، وهو كالذي ينتفع باصطلاء النار وهي محرقة لاثوابه ، وقد ضرب لذلك مثل من الامثال ، وقيل : إن كل ماينفع الكبد مضرّ بالطحال(١٩٠)» وهذا كما يقول : مأخوذ من الامثال العربية والمولدة . وله في ضيق مجال الحرب : «وضاق الضرب بين الفريقين حتى اتصلت مواقع البيض الذكور ، وتصافحت الفور بالفور ، والصدور بالصدور ، واستظل حينئذ بالسيوف لاشتباك مجالها ، وتبوئت مقاعد الجنة التي هي تحت ظلالها(١٩١)» وهذا كما يقول : مأخوذ من الحديث النبوي «الجنة تحت ظلال السيوف» .

٢- مادّة استشهاده

القرآن الكريم

يكثر المؤلف من الاستشهاد بآيات الله تقدّس وتعالى ، هذا وكنت ألمعت - في حينه- ان القرآن الكريم كان على رأس ماحفظه المؤلف ؛ وذلك ليكون له «بحرا يستخرج منه الدرر والجواهر ويودعها مطاوي كلامه .. وكنزا يرجع اليه ، وذخرا يعول عليه »٠

الأحاديث النبوية

وتأتي في المرتبة الثانية من استشهاداته أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ولا غرو فقد صدرت عن أفصح العرب وابلغهم محمد بن عبدالله عليه السلام .

الأشعار الجيدة

وهذه لها المرتبة الثالثة في الاستشهاد ، والجدير بالذكر ان ابن الأثير يستشهد

بالشعر الجيد من مختلف العصور ؛ ذلك لأنه لم يكن يقبل تلك الفئة من النقاد التي كانت تفضل الشعر لتقدم صاحبه في الزمن ، وقد رأينا كيف كان وقف منها في كتابه مواقف تكشف عن ذوقه السليم(١٩٢) ، وقد تقدم في اثناء الحديث عن ثقافته انه كان يحفظ بصورة خاصة دواوين البحتري وابي تمام وابي الطيب ؛ ولهذا جاءت اكثر استشهاداته الشعرية من هذه الدواوين الثلاثة .

رسائله ومكاتباته

ويحفل الكتاب كذلك بنماذج من رسائله ومكاتباته يستشهد بها على مايريد توضيحه من الوان البلاغة ، فخورا بها معتزا بما وصلت اليه من مستوى فني .

نماذج أدبية لغيره

وتجد بعد هذا كله حرص الكاتب على ان يستشهد بمادة لغيره من الكتاب ، هي نماذج ادبية راقية لعلماء ظهر تقدّمهم في صناعة تأليف الكلام . لكن يجب ان لانغفل ان الإتيان بها في أكثر الأحيان انما كان من اجل تصحيح ماوقع فيها اصحابها من أخطاء وخلط واضطراب ، وبقصد سد ماكان فاتهم من ثغرات .

من هذه المصادر كان ضياءالدين يمتاح مادته ، يأتي بخير ما فيها ليدعم رأيا يراه او نظرية يضعها ، وهو لايكتفي حين يريد التدليل على شيء بالأخذ من مصدر واحد بل يأتي بما يقع عليه نظره من هذه المصادر جميعا ؛ ولعله أراد بهذا ان يشحن مايتوصل اليه قوة تحفظه من عبث العابثين . لكن هذا لايمنع من أن القارئ يستطيع ان يقع على مواضع لم يستشهد فيها المؤلف بمادة من كل تلك المصادر؛ وهذا لايكون الا بسبب خلو تلك المادة مما يريده شاهدا ؛ انظر ماكتبه – مثلا– في موضوع الأحاجي والألغاز فإنك لا تقع على آية قرآنية ، وتبحث عن السبب فيكفيك المؤونة حيث يقول : «وقد تأملت القرآن فلم أجد فيه شيئا منها ، ولا ينبغي ان يتضمن منها شيئا ، لأنه لا يستنبط بالحدس والحزر كما تستنبط الألغاز(١٩٣) ».

٣- تعصُّبُه للعربيَّة

ويتجلى اعتزازه بلغته القومية كلما وجد فرصة تدعو لذلك ؛ كأن يكون مثلا في حديث عن بعض الالوان البلاغية ، ثم يتوصل في دراسته الى ان هذا اللون تفردت فيه العربية دون غيرها من اللغات* . والجميل في هذا ان احكامه هنا ليست بظنّية ؛ ذلك لأني ألمعت فيما تقدم من الصفحات الى ان المؤلف كان يعرف عددا من اللغات**، الأمر الذي كان يسمح له - فيما أرى - بعقد مقارنة بين العربية وغيرها ، ومن ثم يسجل مايصل اليه نظره من نتائج تدعو الى الارتياح .

خاتمة

وبعد ، فلعل فيما قدمنا مايدل على ان ابا الفتح نصر الله ضياء الدين بن الاثير الجزري الموصلي كان ذا ثقافة واسعة ، تتصل اكثر ماتتصل بعلوم الدين والفقه واللغة والادب والبيان والنقد والمنطق ، وقد عرف اضافة الى لغته العربية : السريانية واليونانية والفارسية والتركية .

ولعل اكثر مايلفت النظر في شخصية ابن الاثير انه كان رجلا معتدا بنفسه معتزاً بها الى درجة الغرور والتعالي والتعريض والحقد ، حتى على مشهوري عصره وكبرائه من علماء البيان والكتابة . وقد بلغت ثقته بنفسه حداً جعله يجعل كتابه المثل السائر معرضا لنماذج انشائية لذاته ، ويبين افتتانه بمعانيها المبتكرة وافكارها المبتدعة .

وقد تبين من خلال البحث كل الجوانب النقدية في حياة ابن الاثير ، الذي وقف -بخبرته وممارسته - من الدراسات البيانية السابقة موقف المصحح الموجه لما ظهر فيها من نواقص وثغرات ، فرفض ماتصفت به من احكام مخطوفة وتعميم وخلط واضطراب وانعدام دليل يستند الى تحكيم الذّوق ويقدّم في اطار من البرهان والحجة ويتوصل اليه بطريق البحث الدقيق والاستقراء الكامل لاكبر قدر من المادة التي يراد الانتهاء منها الى نتائج حقيقية ، فتحصل القناعة التامة المبنية على التعليل المنطقي والفكر المنظم . ولكنه بخلاف ذلك ، كان اذا تبين له بعد معالجته لمادة السابقين

-بالدراسة والمقارنة – صحة بعضها رجح مايراه صوابا وأتى منه بمادة صالحة يعزز بها مايتخذه من أحكام . وقد اتصف نقده احيانا بالعنف فوسم بعض من يؤلفون الكلام بسبب عنادهم ومكابرتهم بالتقليد والجهل والتعصب وتحكيم الهوى ، وردّهم للنظر في أعظم المصادر التي يستقي منها مادته وهو القرآن ليتبين لهم صحة دعواه.

ولم يكن ابن الأثير الذي جهد كثيرا ليرسم للكتّاب طريقاً يسيرون عليه بالناقد الذي يرضى عن الكتابة اذا تبين له أنها أخلّت بشيء من مقوّماتها وأركانها ، ولذلك رفض الضعف والركاكة والتكلف والتلاعب بالألفاظ ، وطالب الكتّاب بالتزام الدقة ، وقسا على من يدعي منهم السّبق فنعته بالحمق . وتقبل أحيانا ماورد لبعضهم ، واتخذه شاهدا يقوّي به مايقرّره من أحكام .

ولم يكن ابن الاثير بالناقد الذي يفضل القديم لتقدّمه ويحطّ من الجديد لتأخره ، بل كان ناقدا تأثريا يعلي من شأن الذوق في الحكم على الادب ، ولذلك اعتبر تفضيل علماء العربية للقديم سخفا ، وأبان عجزهم في التعرّض لمسائل البيان التي هي الفصاحة والبلاغة لانّهم ليسوا مؤهلين لذلك .

وظهر تأثر ابن الاثير في مادته ببعض الدراسات النقدية التي ظهرت في القرن الخامس الهجري وكان لها اهتمام بأسلوب تأليف العبارة ، وبخاصة دراسة ابن سنان الخفاجي في «سر الفصاحة» ، فقد اهتم باللفظة المفردة وحروفها والحركات التي تكون فوق الحروف وتتابع هذه الحركات حتى تكون اللفظة حسنة او قبيحة .

ـ كما تأثر ايضا بدراستي عبدالقاهر الجرجاني «دلائل الاعجاز واسرار البلاغة» فاهتم بتركيب الجملة بحيث تكون كل لفظة فيها مع أختها المشاكلة لها .

وتبين ان الموهبة عند ابن الاثير او مايسميه بالطبع او الذّكاء او الاستعداد الفطري هي ملكة كامنة في الانسان ، وهي الحافز على الابداع والابتكار ، يشحذها الكاتب بالاحاطة بأدوات علم البيان ، واذا لم تجد الصّقل فإنها تخبو . وأدرك ابن الاثير كذلك أن هذه الملكة الذهنية تختلف في ماهيتها من انسان الى آخر ، ولذلك

نرى كلا يبدع في مجاله الخاص به .

واتضح ان مقياس الحكم على الأدب عند ابن الاثير هو الذوق السليم ، الذي هو وسيلة الانسان الى تعلم البيان . وتربية الذوق عنده انما تكون بجهود ذاتية متواصلة من الدراسة والإدمان على مطالعة النصوص حتى تُرقم على خاطره ويصير له ملكة ، ومن دون ذلك لايتربى له ذوق .

وانكشف ان اظهر مايميز صناعة ابن الاثير في الكتابة فكرة الحل التي اخترعها وكان «ابن عذرتها» كما يقول ، وتقوم في أساسها على التكثر من حفظ الآيات القرآنية والأخبار النبوية والشعر ، ثم فك الآية او الحديث او البيت وإفادة الكاتب من ذلك في صناعته حتى يخرج منها ماليس فيها من معان مبتدعة وأفكار مبتكرة . ومن هذا كان القرآن الكريم والاحاديث الشريفة والاشعار الجيدة على رأس مادة استشهاده فيما كتبه ، مضافاً اليها نماذج كثيرة من رسائله ومكاتباته ونماذج اخرى راقية لعلماء ظهر تقدّمهم .

المصادر والمراجع

أ- المصادر

١- القرآن الكريم .

٢- أدب الكتاب ، الصولي ، المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤١ هـ .

٣- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، عزالدين بن الاثير ، دار الكتب بالقاهرة .

٤- رسائل إخوان الصفا ، دار بيروت ودار صادر ١٩٥٧ .

٥- (كتاب الصناعتين) ، أبو هلال العسكري ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٢ .

٦- طبقات الشعراء ، ابن المعتز ، دار المعارف بمصر ١٩٥٦ .

٧- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الاثير ، مصطفى البابي الحلبي ١٩٣٩ .

٨- معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، مطبعة السعادة ١٩٠٦ .

٩- مفرج الكروب ، جمال الدين بن واصل ، دار القلم .

١٠- مقدمة ابن خلدون ، ابن خلدون ، مطبعة مصطفى محمد .

١١- الموازنة بين الطائيين ، الآمدي ، دار المعارف بمصر ١٩٦١ .

١٢- نثر النظم وحل العقد ، الثعالبي ، القاهرة ١٣١٧ هـ .

١٣- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، يونيبيكر ، ليدن ١٩٥٦ .

١٤- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، علي بن عبدالعزيز الجرجاني ، دار احياء الكتب العربية بالقاهرة ، الطبعة الثالثة .

١٥- وفيات الاعيان ، ابن خلكان ، مطبعة السعادة ١٩٤٩ .

ب- المراجع

١٦- اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ، د. عبدالمطلب مصطفى ، دار الاندلس ببيروت ، الطبعة الاولى ١٩٨٤ .

١٧- الادب في العصر الأيوبي ، محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر .
١٨- اصول النقد الادبي ، أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية الطبعة السابعة ١٩٦٤ .
١٩- الحركة الفكرية في مصر ، عبداللطيف حمزة ، دار الفكر العربي .
٢٠- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ، أحمد أحمد بدوي ، مطبعة نهضة مصر .
٢١- رسائل البلغاء ، محمد كرد علي ، مصطفى البابي الحلبي ١٩١٣ .
٢٢- ضياء الدين بن الاثير ، محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر .
٢٣- الفن ومذاهبه في النثر العربي ، د. شوقي ضيف ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٦ .
٢٤- مشكلة السرقات في النقد العربي ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٨ .
٢٥- مقالات في النقد الأدبي ، محمد مصطفى هدارة ، دار القلم ١٩٦٤ .
٢٦- منهج البحث في المثل السائر ، د. علي جواد الطاهر ، دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد ، الطبعة الثانية ١٩٨٩ .
٢٧- النقد المنهجي عند العرب ، محمد مندور ، مطبعة الفكرة بالقاهرة ١٩٤٨ .

الهوامش

(١) وفيات الاعيان ٥/٢٥ .
(٢) سبب تسميتها كذلك لان اول من عمرها الحسن بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) . معجم البلدان ٣/١٠٢ .
(٣) التاريخ الباهر / عزالدين بن الاثير ص ٩.
(٤) نفسه ص ٨ .
(٥) نفسه ص ٨ .
(٦) وفيات الاعيان ٥/٢٤ .
(٧) مفرج الكروب ٣/١٠-١١ .
(٨) مفرج الكروب ٣/١٤ .
(٩) عبداللطيف حمزة (الحركة الفكرية في مصر في العصرين الايوبي والمملوكي) ص ٢٥١ .
(١٠) محمد زغلول سلام (الادب في العصر الايوبي) ص ٢٢٤ .
(١١) نفسه ص ٢٢٤ .
(١٢) وفيات الاعيان ٥/٢٦ .
(١٣) نفسه ٥/٢٨ .
(١٤) محمد زغلول سلام (الادب في العصر الايوبي) ص ٢٢٢ .
(١٥) المثل السائر ٢/٣٦٨- ٣٧٠ .
(١٦) نفسه ١/٤ .
(١٧) نفسه ٢/٤ .
(١٨) نفسه ٢/٢١٥ .
(١٩) نفسه ٢/٢٨١ .
(٢٠) نفسه ٢/٢١٥ .
(٢١) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ٢٤٦ .
(٢٢) نفسه ص ٢٤٦ .
(٢٣) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ٢٤٧ .
(٢٤) المثل السائر ١/٣٩٥ .
(٢٥) وفيات الاعيان ٥/٢٧ .
(٢٦) نفسه ٢٧ .
(٢٧) احمد بدوي (الحياة العقلية) ص ٢٤٨ .
(٢٨) الحياة العقلية ص ٢٤٨ .
(٢٩) عبداللطيف حمزة (الحركة الفكرية في العصرين الايوبي والمملوكي) ص ٢٥٢ .
(٣٠) وفيات الاعيان ص ٢٧ .
(٣١) الحياة العقلية ص ٢٤٨ .
(٣٢) الحركة الفكرية في مصر ص ٢٥٢ .
(٣٣) وفيات الاعيان ٥/٢٧ .
(٣٤) نفسه ٥/٢٨ .
(٣٥) نفسه ٥/٢٨ .
(٣٦) المثل السائر ٢/٣٦٥- ٣٦٦ .
(٣٧) الحياة العقلية ص ٢٤٨ .
(٣٨) نفسه ص ٢٤٨ .
(٣٩) نفسه ص ٢٤٩ .
(٤٠) الحياة العقلية ص ٢٤٩ .
(٤١) عبداللطيف حمزة (الحركة الفكرية) ص ٢٥٢ .
(٤٢) نفسه ص ٢٥٢ .

(٤٣) نفسه ص ٢٥٢ .

(٤٤) المثل السائر ١/٩ .

(٤٥) نفسه ١/١١ .

(٤٦) نفسه ١/١٠ .

(٤٧) نفسه ١/٢٣ .

(٤٨) نفسه ١/٢٣ .

(٤٩) نفسه ١/٢٤ .

(٥٠) المثل السائر ١/٢٩ .

(٥١) نفسه ١/٢٩ .

(٥٢) نفسه ١/٣٠- ٣١ .

(٥٣) نفسه ١/٣١ .

(٥٤) نفسه ١/٣١ .

(٥٥) نفسه ١/٥٠ .

(٥٦) نفسه ١/٥٠ .

(٥٧) نفسه ١/٥٦ .

(٥٨) نفسه ١/٥٨ .

(٥٩) المثل السائر ١/٦٦ .

(٦٠) نفسه ١/٧٠ .

(٦١) نفسه ١/٧٢- ٧٥ .

(٦٢) نفسه ١/٧٦ .

(٦٣) نفسه ١/٧٨ .

(٦٤) نفسه ١/١٤٢ .

(٦٥) نفسه ١/١٧٨ .

(٦٦) المثل السائر ١/١٩٣ .

(٦٧) نفسه ١/٢٤٦ .

(٦٨) نفسه ١/٢٦٤ .

(٦٩) نفسه ١/٢٦٤ .

(٧٠) نفسه ١/٢٦٧ .

(٧١) نفسه ١/٢٧٩ .

(٧٢) نفسه ١/٣٠٤- ٣٠٥ .

(٧٣) المثل السائر ١/٣٦٠ .

(٧٤) نفسه ١/٣٦٥ .

(٧٥) نفسه ١/٣٩٧ .

(٧٦) نفسه ١/٤٢٣ .

(٧٧) نفسه ١/٤٢٤ .

(٧٨) نفسه ٢/٤ .

(٧٩) نفسه ٢/١١ .

(٨٠) المثل السائر ٢/٢٢ .

(٨١) نفسه ٢/٢٦ .

(٨٢) نفسه ٢/٣٣ .

(٨٣) نفسه ٢/٣٩ .

(٨٤) المثل السائر ٢/٣٩ .

(٨٥) نفسه ٢/٥٠ .

(٨٦) نفسه ٢/٥٥ .

(٨٧) نفسه ٢/٦٠ .

(٨٨) نفسه ٢/٦٥ .

(٨٩) المثل السائر ٢/٧١ .

(٩٠) نفسه ٢/٧٤ .

(٩١) نفسه ٢/١٢٩ .

(٩٢) نفسه ٢/١٥٧ .

(٩٣) نفسه ٢/١٧٤ .

(٩٤) نفسه ٢/١٨٩ .

(٩٥) نفسه ٢/١٩٨ .

(٩٦) نفسه ٢/١٩٨ .

(٩٧) نفسه ٢/٢١٣ .

(٩٨) المثل السائر ٢/٢١٥ .

(٩٩) نفسه ٢/٢١٥ .

(١٠٠) نفسه ٢/٢١٩ .

(١٠١) نفسه ٢/٢١٩ .
(١٠٢) نفسه ٢/٢٢٢- ٢٣١ .
(١٠٣) نفسه ٢/٢٣٦- ٢٥٥ .
(١٠٤) نفسه ٢/٢٥٨ .
(١٠٥) المثل السائر ٢/٢٦٩ .
(١٠٦) نفسه ٢/٣٠٤ .
(١٠٧) نفسه ٢/٣٠٦ .
(١٠٨) نفسه ٢/٣١٦ .
(١٠٩) نفسه ٢/٣١٧ .
(١١٠) نفسه ٢/٣١٩- ٣٢٤ .
(١١١) نفسه ٢/٣٣٧ - ٣٤١ .
(١١٢) نفسه ٢/٣٤١- ٣٤٧ .
(١١٣) المثل السائر ٢/٣٤٨ .
(١١٤) نفسه ٢/٣٤٩ .
(١١٥) نفسه ٢/٣٥٩ .
(١١٦) المثل السائر ١/١٨٨- ١٨٩ .
(١١٧) المثل السائر ١/١٩٣ .
(١١٨) نفسه ١/١٩٤ .
(١١٩) نفسه ٢/٤ .
(١٢٠) نفسه ١/٣٤٨ .
(١٢١) المثل السائر ١/٣٤٨ .
(١٢٢) نفسه ١/٣٨٨ .
(١٢٣) نفسه ١/٣٦٦- ٣٦٧ .
(١٢٤) نفسه ١/٣٦٨- ٣٧٣ .
(١٢٥) نفسه ١/٣٨٣- ٣٨٨ .
(١٢٦) نفسه ٢/٢٦٥- ٢٦٦ .
(١٢٧) المثل السائر ١/٣٤٧ .
(١٢٨) نفسه ٢/١٢٧- ١٢٩ .
(١٢٩) نفسه ٢/١٧٩ .
(١٣٠) نفسه ٢/١٩١ .
(١٣١) نفسه ١/٣٨٨ .
(١٣٢) نفسه ١/٤٢٧ .
(١٣٣) نفسه ١/٢٩٣ .
(١٣٤) المثل السائر ٢/٢٠ .
(١٣٥) نفسه ١/٢٩٣ .
(١٣٦) لعلها تحريف من الناسخ ، او خطأ من الطباعة ؛ لانه ابو الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني .
(١٣٧) نفسه ١/٢٤٦ .
(١٣٨) نفسه ١/٢٦٠- ٢٦١ .
(١٣٩) نفسه ١/١٨١ .
(١٤٠) نفسه ٢/٣٣١ - ٣٣٢ .
(١٤١) نفسه ٢/٣٥٩ .
(١٤٢) المثل السائر ١/٣٥٢ .
(١٤٣) نفسه ١/٣٠٦ .
(١٤٤) نفسه ٢/٣٤٢ .
(١٤٥) نفسه ٢/٣٦٧- ٣٧٠ .
(١٤٦) نفسه ١/٢٦ .
(١٤٧) نفسه ١/٢٧ .
(١٤٨) المثل السائر ٢/٣٤٧ .
(١٤٩) نفسه ٢/٣٥٣ .
(١٥٠) نفسه ١/٢٩٦ .
(١٥١) نفسه ١/٧٥ .
(١٥٢) نفسه ١/١٩٩ .
(١٥٣) المثل السائر ١/٢٠٠ .
(١٥٤) نفسه ١/٢٠١ .
(١٥٥) نفسه ١/٢٠٢ .
(١٥٦) نفسه ١/٣٥١ .

(١٥٧) نفسه ١/٣٥٢ .
(١٥٨) نفسه ١/٣٥٢ .
(١٥٩) المثل السائر ١/٢٦٥ .
(١٦٠) نفسه ١/٢٦ .
(١٦١) نفسه ١/٢٩ .
(١٦٢) نفسه ١/٧٢ مثلا .
(١٦٣) نفسه ١/٧٥ .
(١٦٤) نفسه ١/٢٨٨ .
(١٦٥) المثل السائر ١/٣٨٣ .
(١٦٦) نفسه ٢/٣٩٥ .
(١٦٧) نفسه ١/١٧٨ .
(١٦٨) نفسه ١/١٧٩ .
(١٦٩) المثل السائر ١/١٩٠ .
(١٧٠) نفسه ١/١٩١ .
(١٧١) نفسه ١/١٩٢ .
(١٧٢) نفسه ١/١٤٢ .
(١٧٣) المثل السائر ١/٨ .
(١٧٤) نفسه ١/٨ .
(١٧٥) نفسه ١/٥ .
(١٧٦) نفسه ١/٥ .
(١٧٧) المثل السائر ١/٨٤، ٨٥، ١٢٨ .
(١٧٨) نفسه ١/١٦٨ .
(١٧٩) ابن خلدون : المقدمة من ٥٦٠-٥٦٦ .
(١٨٠) المثل السائر ١/٥٠ .
(١٨١) نفسه ١/٦٣ مثلا .
(١٨٢) نفسه ١/٢٨١ .
(١٨٣) نفسه ١/٢٨٤-٢٨٨ .
(١٨٤) محمد زغلول سلام (ضياء الدين بن الاثير ص ٥٦) .
(١٨٥) المثل السائر ١/٧٧ .
(١٨٦) نفسه ١/١٠٦ .
(١٨٧) نفسه ١/١١٥ .
(١٨٨) نفسه ١/١١٦ .
(١٨٩) نفسه ١/١٠٤ .
(١٩٠) المثل السائر ١/١٠٨ .
(١٩١) نفسه ١/١٣٢ .
(١٩٢) نفسه ٢/٢٩٥-٣٩٩ .
(١٩٣) المثل السائر ٢/٢٣١ .

* انظر مثلا الجزء الثاني من الكتاب صفحة ٦٥ او صفحة ٢١٥ .

** انظر صفحة ملا من هذا البحث .